# "وقفات مع أسرار النظم القرآني في سورة المزمل"

**"Pauses on the Secrets of the Qur'anic System in Surat al-Muzzammil"**

إعداد


## د / محمد عيد مطر مسلم عمر أبو خالد

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة.

# "وقفات مع أسرار النظم القرآني في سورة المزمل"

**محمد عيد مطر مسلم عمر أبو خالد**

**قسم التفسير وعلوم القرآن – كلية أصول الدين – القاهرة – جمهورية مصر العربية .**

**البريد الإلكتروني:eid4458@gmail.com**

**الملخص:**

من أجل نعم الله ـ عزوجل ـ على عباده دراسة القرآن الكريم، والبحث في نظمه وبلاغته وإعجازه، فقد أودع الله فيه من الأسرار ما لا تنقضي عجائبه، ولا سبيل إلى إدراك هذه الأسرار والدقائق، إلا عن طريق معرفة لغة العرب وفهمها وإدراك أسرارها وحقائقها، وقد تعددت الدراسات حول بيان أسرار النظم القرآني في القرآن الكريم؛ لاستخراج أسراره، فشرعت في كتابة هذا البحث تحت عنوان: " **وقفات مع أسرار النظم القرآني في سورة المزمل** "؛ رغبة مني في إبراز أسرار النظم القرآني في آيات هذه السورة الكريمة، وجاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، ذكرت في المقدمة: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والتمهيد: ذكرت فيه تعريف النظم القرآني في اللغة والاصطلاح، وبيان أركانه وأهميته بإيجاز، والمبحث الأول: كان للتعريف بالسورة الكريمة، والثلاثة مباحث الأخرى كانت لبيان الأسرار البلاغية، والرموز البيانية، واللطائف العلمية التي جاءت في السورة الكريمة، مع بيان الإرشادات الإلهية والفوائد التربوية التي وُجهت لنبينا محمد ﷺ، والتي هي زادٌ للدعاة وللمسلمين في كل زمان ومكان، ثم ختمت البحث بأهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.

**الكلمات المفتاحية:** أسرار ، النظم القرآني ، المزمل.

# "Pauses on the Secrets of the Qur'anic System in Surat al-Muzzammil"

**Muhammad Eid Matar Muslim Omar Abu Khaled**
**Department of Interpretation and Quranic Sciences - Faculty of Fundamentals of Religion - Cairo - Arab Republic of Egypt.**
**Email: eid4458@gmail.com**

**Abstract :**
One of the blessings of Allah - the Almighty - upon His servants is the study of the Holy Quran, and research into its structure, eloquence, and miraculous nature. Allah has deposited in it secrets whose wonders never cease, and there is no way to comprehend these secrets and subtleties except through knowing and understanding the Arabic language and comprehending its secrets and truths. Many studies have been conducted on explaining the secrets of the Quranic structure in the Holy Quran in order to extract its secrets, so I began writing this research under the title: “Pauses with the secrets of the Qur’anic system in Surat Al-Muzzammil”; In my desire to highlight the secrets of the Qur’anic system in the verses of this noble Surah, This research came in an introduction, a preface, four chapters, and a conclusion. In the introduction, I mentioned: the importance of the topic, the reasons for choosing it, and the research plan. In the preface, I mentioned: the definition of the Qur’anic system in language and terminology, and a brief statement of its pillars and importance. The first chapter: The first chapter was devoted to introducing the Holy Surah, and the other three chapters were devoted to explaining the rhetorical secrets, symbolic figures, and scientific subtleties contained in the Holy Surah, along with explaining the divine guidance and educational benefits directed to our Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace, which are provisions for preachers and Muslims in all times and places. Then I concluded the research with the most important results and recommendations that the research reached.

**Keywords:** Secrets , Quranic System , Al-Muzzammil.

## مقدمة

الحمد لله العزيز الوهاب، مالك الملوك ورب الأرباب، هو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾[1] ،﴿ هُدًى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[2]، وأودعه من العلوم النافعة، والبراهين القاطعة: غاية الحكمة وفصل الخطاب، وخصصه من الخصائص العلية، واللطائف الخفية، والدلائل الجلية، والأسرار الربانية، وجعله في الطبقة العليا من البيان، حتى أعجز الإنسان والجان، واعترف علماء أرباب اللسان بما تضمنه من الفصاحة والبراعة والبلاغة، ويسر حفظه في الصدور، وضمن حفظه من التبديل والتغيير، وجعله معجزة باقية تقوم بها الحجة للمؤمن الأوّاب، والحجة على الكافر المرتاب، وهدى الخلق بما شرع فيه من الأحكام، وبيّن الحلال والحرام، وصرّف من النواهي والأوامر والمواعظ والزواجر، والبشارة بالثواب، والنذارة بالعقاب، وجعل أهل القرآن أهل الله وخاصته، وأورثهم الجنة وحسن المآب.

وبعد؛ فإنَّ من أجل نعم الله ـ عزوجل ـ على عباده دراسة القرآن والبحث في نظمه وبلاغته وإعجازه، فقد أودع الله فيه من الأسرار ما لا تنقضي عجائبه، ولا سبيل إلى إدراك هذه الأسرار والدقائق، إلا عن طريق معرفة لغة العرب وفهمها وإدراك أسرارها وحقائقها، قال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3]، وقد تعددت الدراسات حول بيان أسرار النظم القرآني في كثير من سور القرآن؛

(١) سورة الكهف الآية رقم (١).

(٢) سورة غافر الآية رقم (٥٤).

(٣) سورة ص الآية رقم (٢٩).

لاستخراج أسراره، فشرعت في كتابة هذا البحث تحت عنوان: " **وقفات مع أسرار النظم القرآني في سورة المزمل** "؛ رغبة مني في إبراز أسرار النظم القرآني في آيات هذه السورة الكريمة، خاصة وأن هذه السورة قد اشتملت على كثير من الأسرار البلاغية، والرموز البيانية، واللطائف العلمية، وجاء الحديث فيها عن بعض الإرشادات الإلهية والفوائد التربوية المهمة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من قيام الليل، وقراءة القرآن الكريم بتدبر وتأمل وترتيل، والتجلد والتحمل لتلقي أوامر الكتاب ونواهيه، والمداومة على ذكر الله تعالى، واستغلال الوقت وعدم إضاعته فيما لا فائدة فيه، والتوكل على الله، والتبتل واتخاذه وكيلاً، والأمر بالصبر على الأذى والهجر الجميل، وغير ذلك مما فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الأوامر والإرشادات هي زادٌ للدعاة وللمسلمين جميعاً، ويجب عليهم الالتزام بها اقتداءً بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ كي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

**أسباب اختياري لهذا الموضوع:**

١ـ أن النظم القرآني له أهمية كبيرة؛ إذ هو أهم وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، قال الإمام الزمخشري: " النظم: هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدّى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر "[(١)].

٢ـ بيان أسرار النظم القرآني في هذه السورة الكريمة وبيان فرائده، فقد اشتملت على كثير من الأسرار البلاغية، والرموز البيانية، واللطائف العلمية.

٣ـ بيان ما احتوت عليه السورة الكريمة من الإرشادات الإلهية والفوائد التربوية الموجهة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ للاستفادة منها،

(١) تفسير الكشاف. (٣/ ٦٣).

وبيان مدى رحمة الله وتخفيفه وتيسيره على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته.

٤ـ الرجوع إلى أقوال المفسرين الذين اعتنوا ببيان أسرار النظم القرآني في هذه السورة، والمقارنة بينها والاستفادة منها.

**الدراسات السابقة:** لم أجد في حدود اطلاعي دراسة مستقلة تعرضت لأسرار النظم القرآني في هذه السورة، وإن كانت كتب التفسير مليئة بهذه الأسرار، لكن وجدت بعض الدراسات حول دارسة هذه السورة دراسة تحليلية.

**منهجي في هذا البحث:** اقتضت طبيعة هذا البحث أن أسير فيه على المنهج الوصفي التحليلي[١] لكل آيات السورة محل الدراسة وهي سورة " المزمل"، وقد تتبعت آيات السورة الكريمة مبيناً أسرار النظم الكريم فيها، وذلك ببيان أسرار التعبير ببعض الألفاظ والكلمات والحروف التي جاءت في السورة دون التعبير بغيرها، وبيان أسرار التعريف والتنكير، والحذف والذكر، والتأكيد، وإعادة بعض الألفاظ، وبيان أسرار ترتيب النظم الكريم، وبيان أوجه البلاغة من تشبيهات واستعارات جاءت في السورة الكريمة وغير ذلك، واستعنت على ذلك بأقوال المفسرين الذين اهتموا بالحديث عن أسرار النظم القرآني، مع المقارنة بين أقوالهم. **وكان من متتمات عملي في هذا البحث:**

١ـ كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني وعزوها إلى سورها وبيان رقم الآية في المتن.

٢ـ تخريج الأحاديث من كتب السنة الصحيحة، والحكم عليها.

---

(١) المنهج الوصفي التحليلي: يقوم على وصف ظاهرة من الظواهر للوصول إلى أسبابها، والعوامل التي تتحكم فيها، واستخلاص النتائج لتعميمها، ويتم ذلك وفق خطة بحثية معينة، وذلك من خلال تجميع البيانات وتنظيمها وتحليلها. البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته. للدكتور: محمد الصاوي محمد مبارك ص(٣٠)

٣ـ لم أترجم لأحد من المفسرين وعلماء البلاغة لشهرتهم، وحتى لا يطول البحث بالتراجم.

٤ـ توثيق النقول العلمية من مصادرها الأصلية مكتفياً بذكر اسم الكتاب، والجزء والصفحة، أما المعلومات الكاملة فقد ذكرتها في فهرس المصادر والمراجع.

**خطة البحث:** قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة.

**أما المقدمة:** ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والمنهج الذي سرت عليه.

**والتمهيد:** اشتمل على التعريف بالنظم القرآني وبيان أركانه وأهميته بإيجاز.

**والمبحث الأول:** اشتمل على التعريف بسورة " المزمل " من حيث تسميتها، ونزولها وترتيبها، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها، ومقصودها، وأغراضها، ومناسبتها لما قبلها.

**والمبحث الثاني:** الإرشادات والأوامر الإلهية الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

من الآية الأولى إلى الآية التاسعة.

**والمبحث الثالث:** تثبيت قلب النبي إزاء موقف المشركين منه وتهديدهم بأنواع التهديدات

من الآية العاشرة إلى الآية التاسعة عشرة.

**والمبحث الرابع:** التخفيف على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، وذلك في الآية الأخيرة من السورة الكريمة.

**وأما الخاتمة:** ففيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات، ثم بعد ذلك ذكرت أهم المصادر والمراجع.

**التمهيد:**

يجدر بي قبل البدء في الحديث عن أسرار النظم القرآني في هذه السورة الكريمة، التعريف بالنظم القرآني، وبيان أركانه، وأهميته بإيجاز.

**أولاً: النظم في اللغة:**

قال الفيروز آبادي: "النَّظْمُ: التأليفُ، وضَمُّ شيء إلى شيءٍ آخَرَ، .... ونَظَمَ اللُّؤْلُؤَ يَنْظِمُهُ نَظْماً ونِظاماً، ونَظَّمَهُ: أَلَّفَهُ، وجَمَعَهُ في سِلْكٍ، فانْتَظَمَ وتَنَظَّمَ، وانْتَظَمَه بالرُّمْحِ: اخْتَلَّهُ، والنِظامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ به لُؤْلُؤٌ ونحوه"(١).

وجاء في تاج العروس: (النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر)، وكل شيء قرنته بآخر فقد نظمته، والنظم: (المنظوم) باللؤلؤ والخرز وصف بالمصدر، يقال: نظم من لؤلؤ.....، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما بالكسر ونظمه تنظيما: ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وله نظم حسن، ودر منظوم ومنظم.....، والنظام بالكسر: كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه..... والانتظام: الاتساق.... ونظم القرآن: لفظه، وهي العبارة التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة(٢).

وجاء في المعجم الوسيط: (نظم) الْأَشْيَاء نظمها، انتظم الشَّيْء: تألف واتسق، يُقَال: نظمه فانتظم، وَيُقَال: انتظم أمره استقام، والأشياء جمعهَا وَضم بَعْضهَا إِلَى بعض، يُقَال: رمى صيدا فانتظم سَاقيه بِرُمْح وَهَذَانِ البيتان ينتظمهما معنى وَاحِد، تناظمت الْأَشْيَاء: تضامت وتلاصقت يُقَال تناظمت الصخور،(تنظم) الشَّيْء انتظم.

(١) القاموس المحيط (١/ ١١٦٢). فصل النون.

(٢) تاج العروس. (٣٣/ ٤٩٦: ٤٩٩). مادة: نظم.

(النّظم) المنظوم يُقَال نظم من لُؤْلُؤ، وَيُقَال: أَتَانَا نظم من جَراد صف كثير مِنْهُ، وَالْكَلَام الْمَوْزُون المقفى وَهُوَ خلاف النثر، وَيُقَال: نظم الْقُرْآن: عِبَارَته الَّتِي تشْتَمل عَلَيْهَا الْمَصَاحِف صِيغَة ولغة وَيُطلق على بعض الْكَوَاكِب المنتظمة وَمِنْهَا الثريا.(١)

ويتبين مما سبق أن معنى النظم في اللغة يدور حول: التأليف والجمع، وضم شيء إلى شيء آخر، ويطلق على الاتساق في الأمور المادية مثل: نظم الؤلؤ، والأمور المعنوية مثل: نظمت الشعر.

**النظم في الاصطلاح:**

تعدت التعاريف للنظم، وأوضح التعريفات ما ذكره الشريف الجرجاني حيث قال: " النظم في اللغة: جمع الؤلؤ في السلك، وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل، مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"(٢).

وقال الإمام الخطابي" وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان(٣).

وقال ابن كمال باشا: " اعلم أن أساس البلاغة وقاعدة الفصاحة نظم الكلام، لا بمعنى ضمّ بعضها إلى بعض كيف جاء واتفق، بل بمعنى ترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذاً نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، ولهذا كان عند أرباب هذه الصناعة نظيراً للنسج

(١) المعجم الوسيط. (٢/ ٩٣٣). مادة: نظم.

(٢) التعريفات للجرجاني. (٢٤٢).

(٣) بيان إعجاز القرآن. (٣٦).

والوشي والصياغة وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لِوَضْع كل منها حيث وُضِع علّة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع مكان غيره لم يصلح "[1].

وبهذا يتبين: أن النظم في اللغة أعم؛ فهو مطلق الجمع والتأليف وضم شيء إلى آخر، والنظم في الاصطلاح أخص؛ لأنه ضم وترتيب مخصوص، حسب ترتيب المعاني في النفس أولاً، ووضع كل كلمة في مكانها، وإذا لم يراع ذلك اختل نظم الكلام، وابتعد عن قواعد البلاغة والفصاحة، ولا بد من الارتباط الوثيق بين كل جملة بما قبلها وما بعدها؛ لأن ذلك يدل على كمال التآلف والتناسق.

**أركان النظم القرآني:** لا بد من وجود أمور ثلاثة: اللفظ، والمعنى، والربط بينهما، وهي عناصر وأركان النظم القرآني، قال الإمام الخطابي: وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأَملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه، وأمَّا المعاني فلا خفاءَ على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأَما أَن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عدداً[2].

---

(١) رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة.(١٨٥).

(٢) بيان إعجاز القرآن. (٢٧).

وهذه الأركان الثلاثة تكاملت في النظم القرآني، وبلغت أعلى درجات الفصاحة، فالقرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، على الرغم من تنوع ما جاء في القرآن من الحديث عن توحيد الله وقدرته وعزته، وما جاء في الشريعة من حلال وحرام، وتحليل وتحريم، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، والحديث عن القرون الماضية، وغير ذلك.

**ثانياً: أهمية النظم القرآني:**

١ــ يعد النظم القرآني من أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهذا محل اتفاق بين العلماء، وسأذكر بعض كلامهم على سبيل المثال لا الحصر، قال الإمام الطبري:"ومن أشرفِ تلك المعاني التي فَضَل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله، نظْمُه العجيبُ ورصْفُه الغريب وتأليفُه البديع؛ الذي عجزتْ عن نظم مثْلِ أصغرِ سورة منه الخطباء، وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء، وتحيَّرت في تأليفه الشُّعراء، وتبلَّدت قصورًا عن أن تأتيَ بمثله لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرار بأنه من عند الواحد القهار، مع ما يحوي مَع ذلك، من المعاني التي هي ترغيب وترهيب، وأمرٌ وزجرٌ، وقَصَص وجَدَل ومَثَل، وما أشبهَ ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء"(١).

وقال الإمام القرطبي: "ووجوه إعجاز القرآن عشرة: منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شي، ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب، ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري. (١/ ١٩٩).

الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز "[1].

وقال الإمام الزركشي: " الوجه الثامن: ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم، ولهذا لم يمكنهم معارضته، ونظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً" [2].

وقال ابن الزملكاني: "وجه إعجاز القرآن راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تأليفاً وزنة، وعلت مركباته معنى، بأن يوضع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى"[3].

٢ـ وتظهر أهمية النظم القرآني من خلال أنه أهم وأبرز وجوه الإعجاز، ويقع الإعجاز بأقل عدد من الآيات مقدار ثلاث آيات، وهناك وجوهٌ أخرى للإعجاز مثل إعجاز الهداية وغيرها، وأن الآيات الأخرى التى حوت أنواعاً أخرى من الإعجاز هي معجزة في المقام الأول من جهة نظمها، وبذلك يوجد امتزاج عجيب بين النظم الذي هو مصدر الهداية، وفي نفس الوقت لا تخلو آيات الهداية من بديع النظم وحسن البيان، وفي هذا المقام يقول الإمام الزرقاني: " ووجوه إعجاز القرآن كثيرة..... بيد أنا ننبهك هنا إلى أن بلاغته العليا وجه بارز من هذه الوجوه، بل هي أبرز وجوهه وجوداً وأعظمها أفراداً؛ لأن كل مقدار ثلاث آيات قصار معجز، ولو كان هذا المقدار من آية واحدة طويلة، فقد تحدى الله أئمة البيان أن يأتوا بسورة من مثله، وأقصر سورة هي سورة الكوثر

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. (١/ ٧٣).
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي. (٢/ ٩٨، ٩٩).
(٣) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. (٥٤).

وآياتها ثلاث قصار، وإذا كان أئمة البيان في عصر ازدهاره والنباغة فيه قد عجزوا فسائر الخلق أشد عجزاً.

ولقد فرغنا من أن بلاغة القرآن منوطة بما اشتمل عليه من الخصوصيات والاعتبارات الزائدة، وأنت خبير بأنها سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو سريان الروح في الجسم، وأن نظم القرآن الكريم مصدر لهداياته كلها سواء منها ما كان طريقه هيكل النظم، وما كان طريقه تلك الخصوصيات الزائدة عليه، وهنا يطالعك العجب العاجب حين تجد دليل صدق الهداية الإسلامية قد آخاها واتحد مطلعهما في سماء القرآن فأداه وأداها!!.[١]

٣ـ أن هناك من يشكك في آيات القرآن الكريم وهو لا يفقه دلالات النظم القرآني، وهذه الدلالات هي أقوى ردٌ على المشككين في النظم القرآني، ومن ثم كان السبب في تأليف الإمام ابن الزبير الغرناطي لكتابه (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل) الرد على المشككين في النظم القرآني، فقال: " وإن مما حرك إلى هذا الغرض وألحقه عند من تحلى ولوعاً باعتباره والتدبر لعجائبه الباهرة وأسراره، بمثل حالي على استحكام جذبي وإمحالي بالواجب المفترض، أنه باب لم يقرعه ممن تقدم وسلف، ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهن وخلف أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفتّه أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين" [٢].

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني. (١٢٩/٢).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل. (١/ ٨).

## المبحث الأول:

**أولاً: تسمية السورة:** ليس لهذه السورة إلا اسم " سورة المزمل "، واشتهرت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير، وسماها ابن عباس بذلك(١).

**ثانياً: نزولها وترتيبها:** قال بمكية هذه السورة الإمام البيضاوي، والإمام الرازي، والإمام البغوي، والإمام ابن كثير(٢)، وحكى الإمام ابن الجوزي الإجماع على مكيتها فقال: "وهي مكية كلها بإجماعهم، ثم قال: إلّا أنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: سوى آيتين منها، قوله عزّ وجلّ ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ والتي بعدها. وقال ابن يسار، ومقاتل: فيها آية مدنيّة، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾" (٣).

وقال الإمام السيوطي عن هذا الاستثناء: "ويرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة أنه نزل بعد نزول صدر السورة بسنة، وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس"(٤). وهذا يعني: أن السورة كلها مكية، على أن الظاهر من الروايات أن الآية الأخيرة نزلت منفصلة عن بقية السورة بمدة مختلف في قدرها، وقد قدرتها السيدة عائشة رضي الله عنها بسنة فقالت: " نزل بعد صدر السورة بسنة"(٥).

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن النحاس. (٣١١/٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٥٥). ومفاتيح الغيب للرازي (٣٠/ ٦٨١)، وتفسير البغوي.(٥/ ١٦٤)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٩).

(٣) زاد المسير في علم التفسير. (٤، ٣٥٢). وقال بنحوه الإمام أبو حيان في البحر المحيط. (١٠/ ٣١١)، والإمام الألوسي في روح المعاني. (١٥/ ١١٢).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٦٦، ٦٧).

(٥) رواه الطبري عن ابن عباس. ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن. (٢٣/ =

ويرى الجمهور: أن أول السورة نزل بمكة، وآخرها نزل بعدها بسنين، وروى الطبري عن سعيد بن جبير، قال: لما أنزل الله على نبيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ قال: مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ.....﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فخفَّف الله عنهم بعد عشر سنين(١).

فالظاهر أن الأصح نزول آخر السورة بالمدينة، لقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة، بناءً على أن مقام النبي بمكة كان عشر سنين وهو قول جم غفير، وقال الإمام الطاهر بن عاشور: والروايات عن عائشة مضطربة فبعضها يقتضي أن السورة كلها مكية، وأن صدرها نزل قبل آخرها بسنة قبل فرض الصلاة وهو ما رواه الحاكم في نقل صاحب «الإتقان».

وذلك يقتضي أن أول السورة نزل بمكة، وبعض الروايات يقول فيها: إنها كانت تفرش لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا فصلى عليه من الليل فتسامع الناس فاجتمعوا فخرج مغضبا وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل ونزل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ ﴾ فكتبت عليهم بمنزلة الفريضة، ومكثوا على ذلك ثمانية أشهر ثم وضع الله ذلك عنهم، فأنزل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ ﴾ إلى ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فردهم

---

=

٣٧٣).

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن. (٢٣/ ٣٧٩).

إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة[١]، وهو يقتضي أن السورة كلها مدنية لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بعائشة إلا في المدينة، ولأن قولها: «فخرج مغضبا» يقتضي أنه خرج من بيته المفضي إلى مسجده، ويؤيده أخبار تثبت قيام الليل في مسجده.

وعلّل الإمام الطاهر بن عاشور سبب الاضطراب في هذه الروايات فقال: ولعل سبب هذا الاضطراب اختلاط في الروايات بين فرض قيام الليل وبين الترغيب فيه[٢].

وقال الإمام القرطبي: " قال النخعي في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم متزملا بقطيفة عائشة، وهي مرط [٣] نصفه عليها وهي نائمة ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي". أ.هـ[٤].

ذكره الثعلبي، قلت: وهذا القول من عائشة يدل على أن السورة مدنية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بها إلا في المدينة، وما ذكر من أنها مكية لا يصح والله أعلم[٥].

---

(١) وهذا ما رواه الطبري بسندين إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة، أخرجه البخاري رقم (٥٨٦١)، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه (٧/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) المِرْطُ بالكسر: واحد المروطِ، وهي أكسيةٌ من صوف أو خَزٍّ كان يؤتزر بها. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١١٥٩). فصل الميم، مادة: مرط.

(٤) تفسير الثعلبي. (١٠/ ٥٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. (١٩/ ٣٢).

وقد رجح الإمام الطاهر بن عاشور القول بأن السورة كلها مكية باستثناء الآية الأخيرة فقال: فالذي نعتمد عليه أن أول السورة نزل بمكة لا محالة كما سنبينه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وأن قوله:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ ﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة بعد سنين من نزول أول السورة؛ لأن فيه ناسخا لوجوب قيام الليل، وأنه ناسخ لوجوب قيام الليل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما رووه عن عائشة أن أول ما فرض قيام الليل قبل فرض الصلاة غريب(١).

وترتيبها في المصحف الثالثة والسبعون من سور القرآن الكريم، نزلت بعد سورة القلم(٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٤).

(٢) أما ترتيب هذه السورة من حيث النزول، فقد قال الإمام الطاهر بن عاشور: اختلف في عد هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصح الذي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أن أول ما نزل سورة العلق، واختلف فيما نزل بعد سورة العلق، فقيل: سورة ن والقلم، وقيل: نزل بعد العلق سورة المدثر، ويظهر أنه الأرجح، ثم قيل: نزلت سورة المزمل بعد القلم فتكون ثالثة، وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور، وعلى القول بأن المدثر هي الثانية يحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من «صحيح البخاري» التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٤).

**ثالثاً: عدد آياتها وكلماتها وحروفها:** وعدة آيها في عد أهل المدينة ثمان عشرة آية، وفي عد أهل البصرة تسع عشرة، وفي عد من عداهم عشرون[١]، وهي مائتان وخمس وثمانون كلمة، وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفا[٢].

**رابعاً: مقصود السورة:** قال الإمام البقاعي: "الإعلام بأن محاسن الأعمال تدفع الأخطار والأوجال، وتخفف الأحمال الثقال، ولا سيما الوقوف بين يدي الملك المتعال، والتجرد في خدمته في ظلمات الليال، فإنه نعم الإله لقبول الأفعال والأقوال، ومحو ظلل الضلال، والمعين الأعظم على الصبر والاحتمال، لما يرد من الكدورات في دار الزوال، والقلعة والارتحال، واسمها المزمل أدل ما فيها على هذا المقال"[٣].

**خامساً: أغراض السورة الكريمة:**

١ـ الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بندائه بوصفه بصفة تزمله.

٢ـ الأمر بقيام النبي صلى الله عليه وسلم غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل، وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل.

٣ـ تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم بتحمل أعباء الوحي والرسالة.

---

(١) المصدر السابق. وقال الإمام الداني: اختلافها أربع آيَات {يَا أَيهَا المزمل} عدهَا الْكُوفِي وَالْمَدَنِي الأول والشامي وَلم يعدها الْبَاقُونَ، وَكلهمْ عد {يَا أَيهَا المدثر} من حَيْثُ شاكل آخرهَا أَو آخر رُؤُوس الْآي بعْدهَا، {إِنَّا أرسلنَا إِلَيْكُم رَسُولا}عدهَا الْمَكِّيّ وَلم يعدها الْبَاقُونَ {إِلَى فِرْعَوْن رَسُولا} لم يعدها الْمَكِّيّ بِخِلَاف عَنهُ وعدها الْبَاقُونَ وَهُوَ الصَّحِيح عَن الْمَكِّيّ، {الْولدَان شيبا} لم يعدها الْمدنِي الْأَخير وعدها الْبَاقُونَ. البيان في عد آي القرآن (٢٥٧).

(٢) اللباب في علوم الكتاب. (١٩/ ٤٤٩).

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي. (٣/ ١٣١)

٤ـ الحث على المداومة على ذكر الله، والانقطاع إلى عبادته والتوكل عليه.
٥ـ أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن تكذيب المشركين، والصبر على أذاهم، وهجرهم هجراً جميلاً، وأن الله تكفل له بالنصر عليهم وأن جزاءهم بيد الله، والوعيد لهم بعذاب الآخرة، ووعظهم بما حَلَّ بقوم فرعون لما كذبوا رسول الله إليهم.
٦ـ ذكر يوم القيامة ووصف أهواله.
٧ـ نسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه رعياً لأعذار الملازمة.
٨ ــ الأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاء الصدقات، والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات، والمبادرة بالتوبة وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبره(١).

**خامساً: مناسبة السورة لما قبلها:**

قال الإمام الألوسي: " لما ختم سبحانه سورة الجن بذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام، افتتح عزّ وجلّ هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام"(٢).

وقال الإمام السيوطي: "لا يخفى اتصال أولها ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ ﴾ إلخ بقوله تعالى في آخر تلك ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ الآية"(٣)

وقال الإمام أبو حيان: "أن في آخر ما قبلها ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الآيات، فأتبعه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ ، إعلاما بأنه صلى الله عليه وسلم ممن ارتضاه من الرسل وخصه بخصائص وكفاه شر أعدائه"(٤).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٥).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. (١٥/ ١١٢).
(٣) أسرار ترتيب القرآن (١٤٨).
(٤) البحر المحيط (١٠/ ٣١١).

## المبحث الثاني: أسرار النظم القرآني في الإرشادات والأوامر الإلهية الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، من الآية الأولى إلى الآية التاسعة.

افتتحت السورة الكريمة بنداء النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ ﴾

ـ ومن المعلوم إنه إذا كان المخاطب واحداً، ولم يكن بعيداً؛ دل ندائه على الاعتناء به، والتنبيه على أهمية ما يُلقى إليه من أوامر ونواه، والْمُزَّمِّلُ: اسم فاعل من تزمل فلان بثيابه إذا تلفف فيها، أو مريد النوم، قال الإمام الزجاج: "والمزمل" أصله: المُتَزَمِّل، ولكن التاء أُدغمت في الزاي لقربها منها فثقلت، يقال: تَزَمَّل فُلان إذا تلفف بثيابه، وكل شيء لافف فَقَدْ زُمِّلَ"[1].

وقرأ أُبي: المتزمل على الأصل، يقال: تَزَمَّل يتزَمَّلُ تَزَمُّلاً، وقرأ عكرمة: بتخفيف الزاي أي: المزمل جسمَه أو نفسَه، وقرأ بعض السلف: بتخفيف الزاي وفتح الميم، أي: الذي لف[2]، والعدول عن الأصل إلى ما جاء في النظم الكريم؛ لأجل تسهيل النطق.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج. (٥/ ٢٣٩).

(٢) البحر المحيط. (١٠/ ٣١١)، وينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. (٣٣٥/٢).

=

**ـ أمَّا عن السر في خطابه صلى الله عليه وسلم بهذ الوصف ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ؛**

ففي ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: قول عائشة والجمهور: لأنه كان وقت نزول الآية متزملا بكساء أو لحاف، والتزمل الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، فهو عليه السلام على هذا القول، إنما دعي بهيئة في لباسه، وقال قتادة: كان تزمل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى: يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها، وهذا القول مدح له صلى الله عليه وسلم. وقال عكرمة معناه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ للنبوءة وأعبائها، أي المتشمر المجدّ في أمرها(١).

وعلى القول الأول يحمل التزمل على الحقيقة، وعلى قول عكرمة يحمل على المجاز؛ وهو الاستعداد لتحمل أعباء النبوة؛ لأنها حمل ثقيل وفيه مشقة.

---

=

وقد وجه السمين الحلبي قراءة عكرمة فقال: " وقراءة عكرمة بتخفيف الزاي وتشديد الميم اسم فاعل، وفيها وجهان: الأول ما ذكره أبو البقاء: أن أصله المزتمل على مفتعل فأبدلت التاء ميما وأدغمت، وهو ضعيف، والثاني: أنه اسم فاعل من زمَّل مشددا، وعلى هذا فيكون المفعول محذوفا، أي: المزمِّل جسمَه، والقراءة الثانية كذلك لكن بفتح الميم اسم مفعول منه، أي: المُلَفَّف". الدر المصون في علوم الكتاب المكنون االسمين الحلبي. (٥٠٩/١٠).

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز(٥/ ٣٨٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٢٢)..

وقد رجح الإمام الطبري قول قتادة؛ لأنه قد عقبه بقوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ ﴾ فكان ذلك بياناً عن أن وصفه بالتزمُّل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه[١].

وقدر رجح الإمام ابن جزي الكلبي الأول فقال: "والأول هو الصحيح؛ لما ورد في البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع صلى الله عليه وسلم إلى خديجة ترعد فرائصه فقال: "زملوني زملوني" فنزلت "يا أيها المدثر"[٢]، وعلى هذا نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ فالمزمل على هذا تزمله من أجل الرعب الذي أصابه أول ما جاءه جبريل"[٣].

وهو ما قال به الإمام ابن العربي: "فأما العدول عن الحقيقة إلى المجاز فلا يُحتاج إليه لا سيما وفيه خلاف الظاهر؛ وإذا تعاضدت الحقيقة والظاهر لم يجزْ العدول عنه. وأما قول عكرمة: إنك زَمَلت هذا الأمرَ فقم به؛ وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل[٤].

**ـ وفي ندائه صلى الله عليه وسلم بـ" المزمل" فائدتان:**

"**الفائدة الأولى:** فيه تأنيس وملاطفة له صلى الله عليه وسلم، وترك معاتبته.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن. (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري عن عائشة رقم (٣)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلي الرسول(٧/١)، وجاء عند مسلم عن جابر رقم (١٦١)، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى النبي. (١٤٣/١).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٢٢).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي. (٤/ ٣٢٣).

**والفائـدة الثانيـة:** التنبيـه لكل متزمل راقد ليلـه، لتنبـه إلـى قيـام الليل وذكر الله تعالى، لأن الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة"[١].

ــ وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور أن الأصل في النداء: " أن ينادى المنادى بالاسم العلم، إذا كان معروفاً عند المتكلم، فلا يُعدل عن الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم، نحو: "يأيها النبي"، أو تلطف وتقرب نحو: يا بني ويا أبتِ،.... فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لِبسة أو جِلسة أو ضِجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجِعاً في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه "قم أبا تراب"[٢] وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق "قم يا نومان"[٣]،[٤].

ــ **وخُوطب النبي بهذا الوصف ولم يُخاطب بالنبي أو الرسول**؛ لأنَّ هذا الخطاب كان أول الوحي قبل تبليغ الرسالة، ثم خوطب بعد بالنبي والرسول[٥].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل. (٢/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه الإمام البخاري عن سهل ابن سعد رقم (٣٧٠٣)، كتاب أصحاب النبي، باب مناقب علي بن أبي طالب.(١٨/٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم عن إبراهيم التيمي عن أبيه، رقم (١٧٨٨)،كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، (١٤١٤/٣).

(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٦).

(٥) تفسير البغوي. (٥/ ١٦٤).

ـ وقوله تعالى﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ أمرٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، والتقدير أي: قم إلى صلاة الليل، وهو التهجد.

**فإن قال قائل لم حذف حرف الجر " إلى"، ولم عبر عن الصلاة بالقيام؟**

ـ حذف حرف الجر يدل على الاستيعاب كما يقال: صمت شهراً بخلاف صمت فى الشهر، وعبر عن الصلاة بالقيام؛ لأن القيام جزء وركن من الصلاة، فهو مجاز مرسل(١) من باب تسمية الشيء باسم جزئه وركنه، ومعنى " قم": أي: صل(٢)، وقد بين الإمام بن عاشور: أن فعل " قم" منزل منزلة اللازم؛ فلا يحتاج إلى تقدير متعلق، لأن القيام مراد به الصلاة(٣).

وقال الإمام ابن العربي: " قم" فعل لا يتعدى، ولكنه على أصل الأفعال القاصرة في تعديه إلى الظروف، فأما ظرف الزمان فسائغ فيه، وارد كثيراً به، يقال: قام الليل، وصام النهار، فيصح ويفيد، وأما ظرف المكان فلا يصل إليه إلا بواسطة، لا تقول: قمت الدار حتى تقول وسط الدار وخارج الدار. وقد قيل "قم" هاهنا بمعنى "صل"؛ عبر به عنه، واستعير له عرفا فيه بكثرة الاستعمال(٤).

---

(١) المجاز المرسل هو: اللّفظ المفرد المستعمل في غير ما وُضع له في اصطلاحٍ به التخاطب على وجْهٍ يَصِحُّ ضمن الأصول الفكريّة واللّغوية العامّة، لعلاقة غير المشابهة مع قرينة صارفة عن إرادة المعنَى الأصليّ. كاستعمال لفظ "الْيَد" بمعنى النّعمة، لعلاقة السببيّة. واستعمال كلمة: "الْعَيْن" مراداً بها الجاسوس، لأنّ أعظم أدوات تجسُّسه عيْنُه. البلاغة العربية. (٢/٢٧٤).

(٢) ينظر: التفسير المظهري. (١٠/ ١٠٢).

(٣) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٧).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي. (٤/ ٣٢٤).

ـ ثم جاء الاستثناء من الليل ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منه، فلم يتعلق إيجاب القيام عليه بالليل كله، وقد جاء الاستثناء مجملاً، فكان لا بد له من بيان، فبينه الله تعالى بقوله:﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ وهو بدل كل من كل من ﴿ قَلِيلًا ﴾ ، فالقليل هو النصف أو أقل من النصف.

**ـ وفائدة هذا الإجمال الذي جاء في الاستثناء كما ذكر الإمام الطاهر بن عاشور**؛ "الإيماء إلى أن الأولى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل، وأن جعله نصف الليل رحمة ورخصة للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدل لذلك تعقيبه بقوله: ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ أي: انقص من النصف قليلا، فيكون زمن قيام الليل أقل من نصفه، وهو حينئذ قليل فهو رخصة في الرخصة، وقال﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ بمثل ما قيد به أو انقص منه لتكون الزيادة على النصف متسعة"(١).

ـ وقد خُير النبي صلى الله عليه وسلم بين قيام نصف الليل، أو ينقص منه قليلاً بحيث يزيد على الثلث، أو يزيد عليه قليلاً بحيث لا يزيد على الثلثين، فالنبي صلى الله عليه وسلم أُمر بأن يقوم من الليل ساعات تتراوح بين الثلث والثلثين، أي: بين أن يقوم نصف الليل، أو أقل من النصف، أو أزيد منه.

**وقد بيّن الطاهر بن عاشور الفائدة من هذا التخيير**، فقال: " والتخيير المستفاد من حرف أو منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر؛ لأن لذلك ارتباطاً بسعة النهار للعمل، ولأخذ الحظ الفائت من

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٩).

النوم، وبعد، فذلك توسيع على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لرفع حرج تحديده لزمن القيام فسلك به مسلك التقريب"[١].

وقد تكون الفائدة من هذا التخيير: التماس العذر للنبي صلى الله عليه وسلم في بعض الليالي التي يمنعه مانع من قيامها[٢]، ومع ذلك فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالعزيمة وكان حريصاً على قيام الليل، فقد جاء في الحديث الصحيح أن المغيرة بن شعبة قال: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [٣]

ـ **والسر في تخصيص الليل بالصلاة فيه؛** لأنه وقت سكون الأصوات، فتكون العبادة فيه أكثر خشوعا، وأدعى لصفاء النفس، وطهارة القلب، وحسن الصلة بالله عز وجل، قال الإمام ابن عاشور: " وتخصيص الليل بالصلاة فيه؛ لأنه وقت النوم عادة، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله، ولأن الليل وقت سكون الأصوات واشتغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادا لتلقي الفيض الرباني"[٤].

ـ ثم أُمر النبي بترتيل القرآن ترتيلاً بليغاً، قال تعالى:﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ والرتل في اللغة يطلق على: حسن تناسق الشيء وانتظامه، وثغر رتَلُ ورتِلُ: أي: مفلج، وقيل بين أسنانه فروج لا يركب بعضها بعضاً، ورتل

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٩).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٨٣٦)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى " ليغفر لك ما تقدم من ذنبك...." (٦/ ١٣٥).

(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٥٩، ٢٦٠).

الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه، والترتيل في القراءة: الترسل فيها والتبيين من غير بغي، ويطلق على التحقيق والتبيين والتمكين في قراءة القرآن؛ قال ابن عباس: بينه تبيينا؛ والتبيين لا يتم بالتعجل في القراءة، وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف ويوفيها حقها من الإشباع(١).

**وعرفاً:** رعاية مخارج الحروف، وحفظ الوقوف، وهو خفض الصوت والتحزن بالقراءة(٢).

فلا بد لقاريء القرآن من القراءة بتؤدة وطمأنينة وتدبر وخشوع، ومراعاة أحكام التجويد من حيث الوقف والمد والإظهار والإخفاء وغير ذلك، ورعاية مخارج الحروف والحركات وإعطائها حقها(٣).

**والحكمة من الترتيل:** ترسيخ حفظ القرآن، وتدبر معانيه حتى لا يسبق نطق اللسان عمل الفهم، وأن يتعلق بأذهان وقلوب سامعيه، وما أروع ما ذكره الإمام الماتريدي: "وإنما أمر بالتبيين؛ لأن القرآن لم ينزل لمجرد قراءته فقط، لكنه لمعان ثلاثة:

**أحدها:** أن يقرأ للحفظ والبقاء إلى يوم القيامة؛ لئلا يذهب، ولا ينسى.

**والثاني:** أن يقرأ؛ لتذكر ما فيه، وفهم ما أودع من الأحكام، وما لله عليهم من الحقوق، وما لبعضهم على بعض.

---

(١) ينظر: لسان العرب. (١١/ ٢٥٦). فصل الراء، مادة: رتل.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٩/ ٣٢، ٣٣). فصل الراء مع اللام، مادة: رتل.

(٣) أخرج الإمام البخاري بسنده عن قتادة حديث رقم (٥٠٤٦) أنه قد سُئل أنس رضي الله تعالى عنه كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، ثُمَّ قَرَأَ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ". كتاب: فضائل القرآن، باب مد القراءة (٦/ ١٩٥).

**والثالث:** يقرأ؛ ليعمل بما فيه، ويتعظ بمواعظه، ويجعلونه إماما يتبعون أمره، وينتهون عما نهى عنه؛ فنفذ قراءته في الصلاة يلزمنا هذا كله، ولا ندرك ذلك إلا بالتأمل، وذلك عند قراءته على الترتيل، وهذا الذي ذكرناه يوجب اختيار من يرى الوقوف في القرآن؛ لأن ذلك يدل على المعنى وأقرب إلى الإفهام"[١].

**ـــ وقد أكد الفعل وهو الأمر بالترتيل ﴿ وَرَتِّلِ ﴾ بالمصدر ﴿ تَرْتِيلًا ﴾؛** وذلك تأكيد للأمر بإيجاب الترتيل، وأنه مما لابد منه للقاريء، وأن ثواب قاريء القرآن لكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ[٢]؟ قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[٣]

قال الطاهر بن عاشور: "وأكد الأمر بالمفعول المطلق؛ لإفادة تحقيق صفة الترتيل"[٤].

وأشار الإمام الشوكاني إلى تحقيق صفة الترتيل فقال: "وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم من استيفاء حركته المعتبرة".[٥]

---

(١) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ص (١٠/ ٢٦٩)

(٢) الهذ: الاسراع في القطع، وفي القراءة يقال هو يهذ القرآن هذاً أي يسرده. الصحاح (٥٧٢/٢)، فصل الهاء، مادة: هذذ.

(٣) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. (٨/ ٣٥٧). و تفسير النيسابوري. ( ٦/ ٣٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠)

(٥) فتح القدير للإمام الشوكاني (٥/ ٣٧٩).

ـ **وقد جاءت هذه الجملة ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾** معترضة بين جملة﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ ، وجملة﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ وهي تعليلٌ للأمر بقيام الليل، وبين الإمام الزمخشري الحكمة من هذا الاعتراض بعبارة رائعة فقال:" وأراد بهذا الاعتراض: أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء، فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه"(١).

وقد بين السمين الحلبي أنه اعتراض معنوي، وهو الفصل بين كلامين متناسبين، وذكر أن هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ووافقه من جاء بعده من المفسرين عند حديثهم عن الحكمة من هذا الاعتراض فقال: " يعني بالاعتراض من حيث المعنى لا الصناعة، وذلك أن قوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ ﴾ مطابق لقوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ فكأنه شابه الاعتراض

من حيث دخوله بين هذين المتناسبين أي: أنها وقعت بين كلامين متصلين في المعنى، وإن كانت مستأنفة"(٢).

وقال الإمام الألوسي: "وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي؛ لتسهيل ما كلفه عليه الصلاة والسلام من القيام كأنه قيل: إنه سيرد عليك في الوحي المنزل تكاليف شاقة هذا بالنسبة إليها سهل، فلا تبال بهذه المشقة وتمرن بها لما بعدها.....، وهي مستأنفة للتعليل؛ فإن التهجد يعد النفس لأن تعالج ثقله" (٣).

---

(١) تفسير الكشاف. (٤/ ٦٣٨).

(٢) الدر المصون للسمين الحلبي. (٥١٧/١٠).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٥/ ١١٦).

وكذلك قال الإمام الطاهر بن عاشور: "وهي جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لبيان الحكمة من الأمر بقيام الليل، وهو تهيئة نفس النبي لتحمل شدة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أن الله يسر للنبي جمع القرآن وقراءته، فناسب مجيء هذه الآية عقب الأمر بقيام الليل، فلما أمره بترتيل القرآن أعقبه ببيان علة هذا الأمر"(١).

ـ وقوله تعالى:﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: سنوحي إليك، **والسر في إيثار التعبير بالإلقاءعلى الإيحاء إليه كما ذكر الإمام الألوسي؛** "لقوله تعالى:﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ وهو القرآن العظيم، فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول صلّى الله عليه وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للأمة".(٢)

ـ **فإن قال قائل: ما السر في وصف القرآن بـ ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ مع أن الثقل للموزونات وهي المحسوسات؟** في وصفه بالثقيل عدة أوجه وهي كالآتي:

١ـ أنه كان يثقُل عليه إذا أُوحي إليه، وهذا قول عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً(٣).

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦١).

(٢) روح المعاني للإمام الألوسي. (١٥/ ١١٦)، وقال بنحوه الإمام المراغي في تفسيره. (٢٩/ ١١٠).

(٣) معنى "فيفصم" أي يقلع، وأفصم المطر إذا أقلع وانكشف، وارفض عرقا: أي جرى عرقه، أخرجه البخاري عن عائشة في بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله رقم (٢)، (١/ ٦).

فيجوز أن يكون "ثقيلا" صفة لمصدر حذف فأقيم مقامه وانتصب انتصابه أي: إلقاءً ثقيلاً، وليس صفة قولاً، وقيل ذلك عن بقائه على وجه الدهر؛ لأن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه.

٢ـ ثقله بما اشتمل عليه من التكاليف الشاقة، كالجهاد ومداومة الأعمال الصالحة. قال الحسن: إن الهذ خفيف، ولكن العمل ثقيل.

٣ـ ثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده.

٤ـ وقيل: كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف؛ لأنه كلام الله، قال ابن عباس: كلاماً عظيماً.

٥ـ وقيل: ثقيل في الميزان يوم القيامة، وهو إشارة إلى العمل به، والثقل يحتمل أن يكون حقيقة، أو مجاز عن كثرة الثواب، أو يكون الثقل مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معانٍ ليست من معتاد ما يجول في الأفكار فيصعب حفظه، أو معانٍ يحتاج العلم بها إلى دقة النظر.

٦ـ ويجوز أن يكون معنى كونه ثقيلاً: أنه رصين؛ لإحكام مبانيه ومتانة معانيه، والمراد أنه راجح على ما عداه لفظا ومعنى، لكن تجوز بالثقيل عن الراجح؛ لأن الراجح من شأنه أن يكون كذلك، وفي معناه ما قيل: المراد كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف، وقيل معناه: أنه ثقيل على المتأمل فيه؛ لافتقاره إلى مزيد تصفيه للسر وتجريد للنظر، فالثقيل مجاز عن الشاق.[1]، وكل هذه الأوجه ثابتة للقرآن الكريم.

ـــ وفي مجيء قوله تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴾ عقب الآية السابقة مناسبة بديعة؛ حيث إن فيها إرشاداً إلى ما يقابل هذا

(١) ينظر: روح المعاني للإمام الألوسي. (١١٦/١٥، ١١٧). والبحر المحيط. (٣١٤/١٠).

الثقل فيما سيلقى عليه من القول، فهي بمثابة التوجيه إلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة(١).

وهي تعليل؛ لتخصيص زمن الليل للقيام فيه، فهي مرتبطة بالأمر بقيام الليل أول السورة، أي: قم الليل؛ لأن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً.

**ـ والسر في إيثار التعبير بـ ﴿ نَاشِئَةَ ﴾ دون غيره نحو: تهجد أو قيام؛** لأنَّ هذه اللفظة تحتمل أكثر من معنى فتحمل على الجميع؛ ليأخذ الناس فيه بالاجتهاد(٢).

فلفظ ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ هي القيام بعد النوم، وهو وصف من النشء بمعنى الحدوث، فهي وصف لموصوف محذوف، أي: النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة، ووصف الصلاة بالناشئة لأنها أنشأها المصلي فنشأت بعد هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تنشأ من الأفق بعد صحو، أو مصدر على وزن فاعلة من نشأ إذا قام، يقول الإمام أبو السعود: " أي: إن النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض من نشأ من مكانه إذا نهض، أو إن قيام الليل على أن الناشئة مصدر من نشأ كالعافية، أو إن العبادة التي تنشأ بالليل، أي: تحدث، أو إن ساعات الليل فإنها تحدث واحدة بعد واحدة، أو ساعاتها الأول من نشأ إذا ابتدأ"(٣).

ــ وتمتاز هذه الآية بنظمها البديع وذلك بالتعبير عن قيام الليل بـ ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾، كما سبق بيانه، وكذلك بقية الآية من حيث أثر

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.(٨/ ٣٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٢).
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩/ ٥٠).

قيام الليل على نفس النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ فقد جاء التعبير فيها عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وهذا من الإيجاز البليغ، وقد تعددت أقوال السلف في معنى هذه الآية. والمعنى﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾: أي قيام الليل، وهو الذي ينشأ بعد نوم،﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾هي خاصة دون ناشئة النهار، أشدّ مواطأة يواطئ قلبها لسانها: إن أردت النفس، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه: إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات، أو أشدّ موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص، وعن الحسن: أشدّ موافقة بين السر والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ: أشدّ وطأ بالفتح والكسر[1]، والمعنى: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل، أو أثقل وأغلظ

(١) وردت قراءتان متواترتان في قوله تعالى﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ قال أبو زنجلة: قَرَأَ أَبُو عَمْرو وَابْن عَامر "وِطاء" بِكَسْر الْوَاو ممدودة الْألف، وَهُوَ مصدر فاعلت مفاعلة وفعالا تَقول: واطأت فلَانا على كَذَا مواطأة ووطاء أَرَادَ وَالله أعلم" أَن الْقِرَاءَة فِي اللَّيْل يواطئ فِيهَا قلب الْمُصَلِّي لِسَانه وسَمعه على التفهم وَالْأَدَاء وَالِاسْتِمَاع أَكثر مِمَّا يتوطأ عَلَيْهِ بِالنَّهَارِ؛ لِأَن اللَّيْل تَنْقَطِع فِيهِ الأشغال وتهدأ فِيهِ الْأَصْوَات والحركات، عَن ابْن عَبَّاس "وطاء" قَالَ يواطئ السّمع الْقلب، وَعَن يُونُس " أَشد وطاء" قَالَ ملاءمة وموافقة ..... وَقَرَأَ الْبَاقُونَ {أَشد وَطأ} بِفَتْح الْوَاو أَي: أثقل على الْمُصَلِّي من سَاعَات النَّهَار، وَهُوَ من قَوْلهم اشتدت على الْقَوْم وَطْأَة سلطانهم، أَي: ثقل عَلَيْهِم مَا يلْزمهُم وَيَأْخُذهُ مِنْهُم، وَفِي الحَدِيث "اللَّهُمَّ اشْدُد وطأتك على مُضر" أخرجه الإمام مسلم رقم (٦٧٥)، في كتاب المساجد ومواضع الصلا، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة. (١/ ٤٦٦). قَالَ الزّجاج: وَيجوز أَن يكون: "أَشد وطأ" أغلظ وَأَشد على الْإِنْسَان من الْقيام بِالنَّهَارِ؛ لِأَن اللَّيْل جعل للنوم والسكون، وَقيل: أَشد وطأ أَي: أبلغ فِي الثَّوَاب؛ لِأَن كل مُجْتَهد فثوابه على قدر اجْتِهَاده، قَالَ آخَرُونَ مِنْهُم الْفراء {هِيَ أَشد وطأ} أَي هِيَ أثبت قيَاما، قَالَ قَتَادَة: "أَشد وطا" أَي: أثْبتْ فِي الْخَيْر وَأثبت للقلب وَالْحِفْظ. حجة القراءات. (٧٣١، =

على المصلى من صلاة النهار، من قوله عليه السلام «اللهم اشدد وطأتك على مضر»[١]

وقد وقع ضمير الفصل "هي" بين معرفة واسم تفضيل، والفائدة منه؛ تقوية الحكم الذي جاء لناشئة الليل لا للحصر، والأقوم: الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير أقوم للأفضل الأنفع، وقيلا: القول، وأريد به قراءة القرآن[٢].

وقد تعددت أقوال السلف في قوله تعالى ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴾ قال مجاهد، أي: أصوب للقراءة، وقال ابن عباس، أي: أدنى من أن تفقهوا القرآن، وعن قتادة: أحفظ للقراءة، وقال ابن زيد: أجدر أن يتفقه في القرآن، وقال عكرمة: أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة، وحكى ابن شجرة: أعجل إجابة للدعاء، وقال الكلبي: أي: أبين قولاً بالقرآن[٣]، وقال أبو علي الفارسي: ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴾ أي: أشد استقامة وصواباً لفراغ البال وانقطاع ما يشغل[٤]

**ـ فإن سأل سائل: هل ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ في وقت مخصوص من الليل، أم في جميعه؟**

قلت: فيه قولان: الأول: أنها في جميع الليل، روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: الليل كلُّه ناشئة، وإلى هذا ذهب اللغويون. قال ابن

---

=

٧٣٢).

(١) تفسير الكشاف. (٤/ ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٣).

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن. (٢٣/٦٨٤، ٦٨٥). والبحر المحيط لأبي حيان. (١٠/٣١٥). وفتح القدير للشوكاني. (٥/٣٨٠).

(٤) الحجة للقراء السبعة. (٦/٣٣٥).

قتيبة: ناشئة الليل: ساعاته الناشئة، من نشأتْ: إذا ابتدأتْ[١]، وقال الزجاج: ناشئة الليل: ساعات الليل، كلّ ما نشأ منه، أي: كلّ ما حدث[٢]، وهو ما اختاره مالك بن أنس، وهو الذي يعطيه اللفظ، وتقتضيه اللغة[٣].

والثاني: أنها في وقت مخصوص من الليل، وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنها ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك، والثاني: أنها القيام بعد النوم، وهذا قول عائشة، وابن الأعرابي، والثالث: أنها ما بعد العشاء، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو مجلز. والرابع: أنها بَدْءُ الليل، قاله عطاء، وعكرمة، والخامس: أنها القيام من آخر الليل، قاله يمان، وابن كيسان[٤].

ـ والمعنى في قوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴾ أي: تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك، وأصل السبح سرعة الذهاب، ومنه السباحة في الماء، وقيل: سبحاً طويلاً أي: فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك فصل من الليل.[٥]

**وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور ثلاثة أسرار في نظم هذه الآية:**

**أولاً:** ذكر أن هذه الآية لم تعطف على ما قبلها، وذلك يقتضي أن مضمونها ليس من جنس حكم ما قبلها، فليس المقصود تعيين صلاة النهار إذ لم تكن الصلوات الخمس قد فرضت يومئذ على المشهور، ولم يفرض حينئذ إلا قيام الليل، فهذه الآية في موقع العلة من الآية قبلها، وهي إما أن

(١) غريب القرآن لابن قتيبة. (٤٢١).
(٢) معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢٤٠).
(٣) أحكام القرآن لا بن العربي. (٤/ ٣٢٩).
(٤) زاد المسير في علم التفسير.(٤/ ٣٥٤).
(٥) تفسير البغوي. (٥/ ١٦٩).

تكون تعليلاً لاختيار الليل للقيام فيه؛ وذلك لتأكيد المحافظة على قيام الليل، لأن قيامه أشد وقعاً على النفس وأرسخ قولاً، والنهار فيه شغل عظيم لا يختلي فيه النبي بنفسه، فيبلغ الدعوة ويعلم القرآن ويجادل المشركين ويتفقد المستضعفين، فعبر سبحانه بالسبح الطويل ليشمل كل ذلك.

أو يكون فيه اعتذاراً للنبي عن تكليفه بقيام الليل، وإرشاده إلى طول النهار ليقوم فيه بمهامه، أو ينام فيه لما أعقبه قيام الليل من فتور وتعب.

ـ **وفي التعبير عن وقت الفراغ بـ ﴿ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴾**؛ فذلك من الإيجاز البليغ؛ فالسبح يشمل كل ما سبق ذكره مما يفعله النبي صلى الله عليه وسلم في النهار.

ويجوز أن تكون تعليلاً لما تضمنه قوله تعالى:﴿ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴾ ، وأنه إذا نقص من نصف الليل شيئاً فلا يفته ثواب عمله، فإن له في النهار متسعاً للقيام والتلاوة[1].

**ثانياً:** أن في هذه الآية استعارة تصريحية[2] فالسبح مصدر "سبح" وقد استعير من السباحة في الماء؛ للتصرّف في مناحي العيش وحوائج الناس، أي: إن لك في النهار تصرفا وتقلبا في المهمات كما يتردد السابح في الماء، قال الإمام الطاهر بن عاشور: والسبح: أصله العوم، أي: السلوك بالجسم في ماء كثير، وهو مستعار هنا للتصرف السهل المتسع الذي يشبه

(١) ينظر: التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) الاستعارة التصريحية هي: الّتي يُصَرَّحُ فيها بذات اللّفظ المستعار، الذي هو في الأصل المشبّه به حين كان الكلام تشبيهاً، قبل أن تُحْذَف أركانه باستثناء المشبَّهِ به، أو بعض صفاته أو خصائصه، أو بعض لوازمه الذهنيّة القريبة أو البعيدة، فهي باختصار: ما صرح فيها بذكر المشبه به دون المشبه، كقولك: رأيت أسداً، تريد رجلاً. البلاغة العربية.(٢/٢٤٢).

حركة السابح في الماء، فإنه لا يعترضه ما يعوق جولانه على وجه الماء، ولا إعياء السير في الأرض[١].

**ثالثاً: وصف السبح بـ "الطويل" في هذه الآية** مجاز عقلي[٢]؛ لأن الطويل هو مكان السبح وهو الماء المسبوح فيه، وبعد هذا ففي قوله "طويلاً" ترشيح[٣] لاستعارة السبح للعمل في النهار[٤].

قال تعالى:﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ ﴾

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٤).

(٢) المجاز العقلي هو: إسنادُ الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، من حال المتكلم، لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له، وله علاقات كثيرة، منها الإسناد إلى الزمن، مثل: (من سره زمن ساءته أزمان) أسند الاساءة والسرور إلى الزمن، وهو لم يفعلهما، بل كانا واقعين فيه على سبيل المجاز. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. (٢٥٥/١).

(٣) الترشيح: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن، حتي يؤتى بلفظة ترشحها وتؤهلها لذلك، كقول التهامي في مرثيته المشهورة: وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار

فلولا ذكر الشفير، لما كان في الرجاء تورية برجا البئر، ولكان من رجوت الأمر، لقوله أولًا: وإذا رجوت المستحيل. خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي. (٢٩٩/٢).

(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٥).

ـ **والسر في إطلاق الأمر بالذكر وعدم تقييده بوقت**؛ هو إفادة العموم، فيكون المعنى، أي: ودم على ذكره في ليلك ونهارك، واحرص عليه، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح، وتهليل، وتكبير، وتمجيد، وتوحيد، وصلاة، وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره.

ـ **والسر في إقحام كلمة " اسم " مع حذفه في آيات أخرى**، قد بيَّنَه الإمام الرازي فقال: "لأنه لا بد في أول الأمر من ذكر الاسم باللسان مدة ثم يزول الاسم ويبقى المسمى، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله هاهنا: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾، والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى:﴿ وَٱذۡكُرۡ رَّبَّكَ ﴾ وإنما تكون مشتغلا بذكر الرب، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته"(١).

وقال الإمام الطاهر بن عاشور: "وإقحام كلمة اسم لأن المأمور به ذكر اللسان، وهو جامع للتذكر بالعقل؛ لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس، ألا ترى إلى قوله تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ الأعراف: ٢٠٥ (٢)

ـ والمعنى في قوله تعالى:﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴾ قال ابن عباس وغيره: أخلص إليه إخلاصاً، قال الحسن: اجتهد، وقال ابن زيد: تفرغ لعبادته، وقال سفيان: توكل عليه توكلاً، وقيل: انقطع إليه في العبادة

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي. (٣٠/ ٦٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٥).

انقطاعاً، وهو الأصل في الباب، يقال: بتلت الشيء أي: قطعته، ومنه قيل لأمّ عيسى ابن مريم البتول، لانقطاعها إلى الله[١].

ـ فإن قال قائل: الأصل أن يقال وتبتل إليه تبتلاً؛ لأن مصدر تفعّل تفعلا، نحو تصرف تصرفا وتكرم تكرما، فما السر في وضع " تَبْتِيلًا " مكان تبتلا؟

قلت: جاء النظم «تبتيلاً» محمولاً على معنى: تبتّلاً، أي: انقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه، ومراعاة لحق الفواصل[٢]، فجاءت الآية على هذا النظم حتى يكون الفعل موافقاً لمصدره، وللإشارة إلى أن التبتل والانقطاع يحتاجان من الإنسان أن يجرد نفسه عن كل ما سوى الله تعالى، وبذلك يحصل التبتل الذي هو آثر للتبتيل، بمعنى تعويد النفس على الطاعة[٣].

وقد أشار إلى ذلك المعنى الإمام الطاهر بن عاشور فقال: "وجيء بهذا المصدر عوضا عن التبتل؛ للإشارة إلى أن حصول التبتل، أي: الانقطاع يقتضي التبتيل، أي: القطع، ولما كان التبتيل قائما بالمتبتل تعين أن تبتيله قطعه نفسه عن غير من تبتل هو إليه، فالمقطوع عنه هنا هو من عدا الله تعالى، فالجمع بين تبتل وتبتيلا مشير إلى إراضة النفس على ذلك التبتل، وفيه مع ذلك وفاء برعي الفواصل التي قبله"[٤].

وقد ذكر الإمام ابن القيم نكتة بديعة حيث قال:"ومصدر تبتل إليه تبتيلاً كالتّعلّم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف؛ فإن

(١) تفسير البغوي. (٥/ ١٦٩).
(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش. (١٠/ ٢٥٧).
(٣) التفسير الوسيط.( ١٥/ ١٥٩).
(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٦)

في هذا الفعل إيذانا بالتدريج والتكلف، والتعمل والتكثر والمبالغة، فأتي بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بتّل نفسك إلى الله تبتيلا، وتبتل إليه تبتلا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من حسن الاختصار والإيجاز"[1].

وقوله تعالى:﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾[2] فيه عدة أسرار:

**أولاً:** ذكر الإمام الطاهر بن عاشور السر وصف الله نفسه بأنه رب المشرق والمغرب وذلك؛ لمناسبة الأمر بذكره في الليل وذكره في النهار، وهما وقتا ابتداء غياب الشمس وطلوعها، وذلك يشعر بامتداد كل زمان منهما إلى أن يأتي ضده، فيصح أن يكون المشرق والمغرب جهتي الشروق والغروب، فيكون لاستيعاب جهات الأرض، أي: رب جميع العالم وذلك يشعر بوقتي الشروق والغروب.

ويصح أن يراد بهما وقتا الشروق والغروب، أي: مبدأ ذينك الوقتين ومنتهاهما، كما يقال: سبحوا لله كل مشرق شمس، وكما يقال: صلاة المغرب.

(١) قال أبو زنجلة: قَرَأَ نَافِع وَابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَحَفْص {رب الْمشرق} بِالرَّفْعِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بالخفض. الرّفْع يحْتَمل أَمريْن، أَحدهمَا: أَن يكون كَمَا قَالَ قبلهَا {وَاذْكُر اسْم رَبك} قطعه من الأول فَقَالَ {رب الْمشرق} فَيكون على هَذَا خبر ابْتِدَاء مَحْذُوف، وَالْوَجْه الآخر: أَن يرفعهُ بِالِابْتِدَاءِ وَخَبره الْجُمْلَة الَّتِي هِيَ {لَا إِلَه إِلَّا هُوَ} وَمن خفض فَإِنَّهُ عطفه على قَوْله قبله {وَاذْكُر اسْم رَبك} فَجعل مَا بعده مَعْطُوفًا عَلَيْهِ إِذْ كَانَ فِي سِيَاقه. حجة القراءات (٧٣١).

(٢) التفسير القيم .(٥٥٥).

**ثانياً:** السر في تعقيب هذا الوصف بالإخبار عنه بـ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؛ لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب، فلما كانت ربوبيته للعالم لا ينازع فيها المشركون، أعقبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تعريضا بهم في أثناء الكلام، وإن كان الكلام مسوقاً إلى النبي(١).

**ثالثاً:** الفاء في قوله﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ فصيحة، أي: إن عرفت ذلك وآمنت به فاتخذه وكيلاً، وجعلها الإمام أبو السعود لترتيب الأمر وموجبه على اختصاص الألوهية والربوبية به تعالى(٢). وجعلها الإمام البيضاوي للسببية فقال: " قوله تعالى ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ مسبب عن التهليل، فإن توحده بالألوهية يقتضي أن توكل إليه الأمور"(٣).

وهذه الآية فيها ترتيب بديع؛ فاختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية هو: نتيجة لوصفه برب المشرق والمغرب، والأمر باتخاذه وكيلاً مترتبٌ على اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية، وجعل الإمام الطاهر بن عاشور الفاء للتفريع: "ولذلك فرع عليه قوله ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ وإذ كان الأمر باتخاذ وكيلا مسببا عن كونه لا إله إلا هو، كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلاً"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (٩/ ٥١).

(٣) تفسير البيضاوي. (٥/ ٢٥٦).

(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٧).

**المبحث الثاني: تثبيت قلب النبي إزاء موقف المشركين منه وتهديدهم بأنواع التهديدات من الآية العاشرة إلى الآية التاسعة عشرة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ١٤ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ﴾ المزمل: ١٠ - ١٩

- **ومناسبة الآيات لما قبلها:** أن الأمر بالصبر معطوف على الأمر باتخاذه وكيلاً؛ لأن الصبر على الأذى يُستعان عليه بالتوكل على الله، وقد صبر النبي صلى الله عليه وسلم على قول الكفار بأنه مجنون، وأنه ساحر وأنه وشاعر.
- والضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ يعود على المشركين وإن لم يتقدم لهم ذكر، لأنه معلوم للسامعين، ولما سيأتي بعد ذلك من قوله: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾.
- **ومعنى الهجر الجميل:** أن يبتعد الإنسان عن خصمه وعدوه بأي أذى أو عتاب، والمعنى كما قال الإمام البيضاوي: أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة[1].

(١) تفسير الكشاف (٤/ ٦٤٠).

وعرف الإمام ابن عاشور الهجر الجميل فقال هو: الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بعض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضاً لأن يعتلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك، فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي: أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً".

ثم بين الإمام الطاهر بن عاشور:" أن هذا الهجر من النبي صلى الله عليه وسلم هو" إمساكه عن مكافأتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ وهذا الهجر ليس منسحبا على الدعوة للدين؛ فإنها مستمرة لأنه مبلغ عن الله تعالى"(١).

**وقد بين الإمام الرازي** لطيفة مهمة في هذه الآية وعلاقتها بما قبلها فقال: "واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين: كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين"(٢).

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي. (٣٠/ ٦٨٩).

ـ وقولـه تعـالى: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ أي: دعني وإياهم وكل أمرهم إلي فإني أكفيكهم، والمراد بـ ﴿ وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ أهل مكة الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم، والإظهار في مقام الإضمار؛ لإفادة أن التكذيب هو سبب هذا التهديد.

ـ **والتعريف في النعمة للعهد وهو:** ما يعهده الناس من معناها من الغنى والترفه والتنعم، وكثرة المال والولد، وغضارة العيش، أمَّا عن السر في وصفهم بـ﴿ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ فقد قال الطاهر بن عاشور: "ووصَفَهم بـ ﴿ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾؛ توبيخاً لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديداً لهم بأن الذي قال ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ سيزيل عنهم ذلك التنعم، وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدون سعة العيش ووفرة المال كمالاً، وكانوا يعيرون الذين آمنوا بالخصاصة"[1].

ـ **وفي﴿ ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ " النعمة " ثلاث لغات فهي:** بالفتح التنعم، وبالكسر الإنعام، وبالضم المسرّة[2]، وقد أبدع الإمام الطاهر بن عاشور في بيان الفرق بين اللغات الثلاث، فقال: "(النَعمة) هنا بفتح النون باتفاق القراء، وهي اسم للترفه، وجمعها أنعم بفتح الهمزة وضم العين، وأما (النِعمة) بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية، وأمن ورزق، ونحو ذلك من الرغائب. وجمعها: نعم بكسر النون وفتح العين، وتجمع جمع سلامة على نعمات بكسر النون وبفتح العين لجمهور العرب. وتكسر العين في لغة أهل الحجاز كسرة إتباع، و(النُعمة) بضم النون:

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: تفسير مفاتيح الغيب للرازي. (٣٠/ ٦٨٩).

اسم للمسرة، فيجوز أن تجمع على نعم على أنه اسم جمع، ويجوز أن تجمع على نعم بضم ففتح مثل: غرفة وغرف، وهو مطرد في الوزن"[١].

ـ **وأشار إلى السر في إيثار﴿ ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ بفتح النون وذلك**؛ "للإشارة إلى أن قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة، أي: الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم، ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة.

والتمهيل في قوله تعالى ﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾: هو الإمهال الشديد، وهو التأجيل وتأخير العقوبة، وهو مترتب في المعنى على قوله:﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي وانتظر أن ننتصر لك"[٢]، و﴿ قَلِيلًا ﴾ وصف لمصدر محذوف، أي: تمهيلاً قليلاً، وانتصب على المفعول المطلق، وقد ينتصب على الظرفية أي: زماناً قليلاً[٣]، سواء أكان التمهيل هو المدة الباقية في حياتهم، أو المدة القليلة إلى يوم بدر.

ـــ وقوله تعالى:﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ تعليل للأمر في﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وما عطف عليه، فكأنه قيل: كل أمرهم إلي، ومهلهم قليلا؛ لأن عندي ما أنتقم به منهم أشد الانتقام[٤].

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/٢٧٠).
(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٠).
(٣) ينظر: تفسير البيضاوي.(٥/ ٢٥٦) وروح المعاني (١٥/ ١١٩)،
(٤) ينظر: روح المعاني للإمام الألوسي. (١٥/ ١١٩).

ـ **أما عن فائدة هذا التعليل،** فإن هذه الأمور الأربعة مضادة لتنعمهم في الدنيا، وقد أبدع الإمام الطاهر بن عاشور في بيان ذلك، فقال: "وهذا التعليل أفاد تهديدهم بأن هذه النقم أعدت لهم؛ لأنها لما كانت من خزائن نقمة الله تعالى كانت بحيث يضعها الله في المواضع المستأهلة لها، وهم الذين بدلوا نعمة الله كفرا، فأعد الله لهم ما يكون عليهم في الحياة الأبدية ضدا لأصول النعمة التي خولوها، فبطروا بها وقابلوا المنعم بالكفران.

فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة؛ لأن الأنكال القيود، والجحيم: وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد. والطعام: ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد.

والعذاب الأليم: مقابل ما في النعمة من ملاذ البشر، فإن الألم ضد اللذة، وقد عرف الحكماء اللذة بأنها الخلاص من الألم، وقد جمع الأخير جمع ما يضاد معنى النعمة (بالفتح) [1] .

ـ **والسر في تنكير هذه الأجناس الأربعة** ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لقصد تعظيمها وتهويلها وتنوعها، فالأنكال: جمع نكل بكسر النون وفتحها وسكون الكاف، وهو: القيد الثقيل من الحديد، وقيل: الشديد، وقيل: قيوداً سوداء من نار[2]، وسميت القيود بالأنكال؛ لأنها تجعل صاحبها موضع عبرة وعظة، أو لأنها تجعل صاحبها ممنوعا من الحركة، والتقلب في أنحاء الأرض.

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري. (٢٣/ ٦٩١)، وتفسير ابن عطية.(٥/ ٣٨٩)، وروح المعاني (١٥/ ١١٩).

والجحيم هو: النار الشديدة الحر والاتقاد[١]، و﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الغصة بضم الغين: اسم الأثر الغص في الحلق، وهو: تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يسيغه الحلق من مرض أو حزن وعبرة.

ـ أما عن نوع إضافة الطعام إلى الغصة فقد بين الإمام الطاهر بن عاشور: أنها إضافة مجازية وهي من الإضافة لأدنى ملابسة، فإن الغصة عارض في الحلق سببه الطعام أو الشرب الذي لا يستساغ لبشاعة أو يبوسة [٢].

**وللمفسرين فيه أربعة أقوال:** أحدها: أنه شوك من نار يعترض في الحلق فلا يخرج ولا ينزل، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: الزَّقُّوم، قاله مقاتل. والثالث: الضَّريع، قاله الزجاج. والرابع: الزَّقُّوم والغِسْلين والضَّريع، حكاه الثّعلبيّ[٣].

و﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾أي: نوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله تعالى[٤]، وتنكيره؛ يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل، أو أنه يشمل سائر أنواع العذاب.

ـ والظرف في قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ منصوب بالاستقرار المتعلق في " لدينا " وهو الخبر في الحقيقة، أى: استقر لهم ذلك العذاب الأليم لدينا يوم القيامة، يوم تضطرب

(١) تفسير الكشاف (٤/ ٦٤٠).
(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧١).
(٣) زاد المسير في علم التفسير. (٤/ ٣٥٥).
(٤) تفسير البيضاوي. (٥/ ٢٥٦).

وتتزلزل الأرض والجبال، وقيل: متعلق بمضمر هو صفة لـ "عذاباً"، أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف.

﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ في هذا اليوم ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أى: رملاً مجتمعاً، بعد أن كانت قبل ذلك الوقت أحجاراً صلبة كبيرة، فالكثيب: من كثب الشيء يكثبه إذا جمعه من قرب ثم صبه، والجمع كثب وكثبان، وهو القطع العظام من الرمال كالربوة، و"مَهِيلًا": اسم مفعول من هال الشيء هيلا، إذا نثره، وفرقه بعد اجتماعه، وهو الذي تحرك أسفله فينهال عليك من أعلاه، فالمهيل السائل(١).

ـ **والسر في التعبير بالفعل الماضي** في قوله تعالى ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾: للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتى كأنه وقع في الماضي، وعبر في أول الآية بالفعل المضارع ﴿ تَرْجُفُ ﴾ ثم عبر بعد ذلك بالفعل الماضي ﴿ وَكَانَتِ ﴾ والسر في ذلك؛ لأن صيرورة الجبال كثبا أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون، وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه(٢).

ـ والخطاب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ للمكذبين أولي النعمة، وجعل الإمام الألوسي في الآية التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب، وهو التفات جليل الموقع، أي: إنا أرسلنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة ﴿ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد يوم القيامة بما

(١) ينظر: التفسير الوسيط بتصرف يسير.(١٥/ ١٦١، ١٦٢)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير.(٢٩/ ٢٧٢).

صدر منكم من الكفر والعصيان﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ هو موسى عليه السلام[١].

ولو جاء الكلام على الأصل لقال: إنا أرسلنا إليهم، والغرض من هذا الالتفات؛ التوبيخ والتقريع على عدم إيمانهم.

ـ بينما يرى الإمام الطاهر ابن عاشور: أن هذا الكلام استئناف ابتدائي، ولا يعد هذا الخطاب من الالتفات؛ لأن الكلام نقل إلى غرض غير الغرض الذي كان قبله، نقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان الخطاب موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والمناسبة لذلك؛ التخلص إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجراً جميلاً إذ قال له﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قوله:﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾..... والمقصود: التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم فرعون وأمثالهم ممن كذبوا بالرسل فهو مثل مضروب للمشركين [٢]

ـ وتأكيد الخبر ب (إن)؛ لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

ـــ **وجاء لفظ "رسولاً" الأول منكراً**؛ لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة، وللتعظيم من شأنه صلى الله عليه وسلم أي: أرسلنا إليكم رسولاً عظيم الشأن، سامى المنزلة جامعاً لكل الصفات الكريمة، قال الإمام الطاهر بن عاشور: " لأنهم يعلمون المعني به فهو غني عن البيان، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال"[٣]، **وتنكير " رسولا " المرسل إلى فرعون**؛ لأن الاعتبار

(١) ينظر: روح المعاني.(١٥/ ١٢٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢)، وروح المعاني (١٥/ ١٢٠).

بالإرسال لا بشخص المرسل، إذ التشبيه تعلق بالإرسال في قوله:﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ إذ تقديره: كإرسالنا إلى فرعون رسولا، والسر في إظهار اسم فرعون دون أن يؤتى بضميره؛ للنداء عليه بفظاعة عصيانه الرسول(١).

ـ **وفي تنكير الرسول ثم تعريفه**؛ لأنه أراد: أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف؛ إشارة إلى المذكور بعينه(٢).

فاللام للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور المعهود عندكم وهو موسى عليه السلام، فإن النكرة إذا أعيدت معرفة باللام كان مدلولها عين الأولى، قال السمين الحلبي:

" وهذه أل العهدية، والعرب إذا قدمت اسما ثم حكت عنه ثانيا أتوا به معرفا بأل، أو أتوا بضميره لئلا يلبس بغيره نحو: «رأيت رجلاً فأكرمت الرجل» أو فأكرمته، ولو قلت: «فأكرمت رجلا» لتوهم أنه غير الأول"(٣).

ـ **وبين الإمام الألوسي السر في إعادة فرعون والرسول مظهرين فقال:**

"وفي إعادة فرعون والرسول مظهرين تفظيع لشأن عصيانه وبلوغه النهاية في الطغيان، وإن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى، وفيه إن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم؛ إذ زاد جل وعلا لهذا الرسول وصفا آخر أعني﴿ شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ وأدمج فيه أنه لو آمنوا كانت الشهادة لهم"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) تفسير الكشاف.(٤/ ٦٤١).

(٣) الدر المصون للسمين الحلبي. (١٠/ ٥٢٦).

(٤) روح المعاني.(١٥/ ١٢٠).

ـ **وبين الإمام بن عاشور سراً من أسرار النظم الكريم**، وهو أن في الآية إدماجاً[١]؛ حيث قال: " وأُدمج في التنظير والتهديد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهداً عليهم" ثم بين المراد بالشهادة هنا فقال: "وهي الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس، وبذلك يكون وصف ﴿ شَٰهِدًا ﴾ موافقا لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي: هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ، وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي: شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم"[٢].

ـ **وفي تخصيص موسى وفرعون بالذكر دون غيرهما**، لأنَّ أخبارهما كانت مشهورة عند أهل مكة، ولأن أهل مكة ازدروا محمدا صلى الله عليه وسلم واستخفوا به، لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى، لأنه رباه ونشأ فيما بينهم[٣].

ـ والكاف للتشبيه أى: أرسلنا إليكم يا أهل مكة رسولاً شاهداً عليكم هو محمد صلى الله عليه وسلم كما أرسلنا من قبلكم إلى فرعون رسولاً شاهداً عليه، هو موسى عليه السلام.

ـ والكاف في محل النصب على أنها صفة لمصدر محذوف على تقدير اسميتها، أي: إرسالا مثل إرسالنا، أو الجار والمجرور في موضع الصفة

---

(١) الإدماج هُوَ: أنْ يُضَمَّنَ كَلامٌ سِيقَ لمعنًى معنىً آخر. كأن يُوجَّه الكلام في القرآن لوعد الرسول والمؤمنين بالنصر والتأييد من الله عزّ وجلّ، ويُدْمَج فيه وَعِيدُ الكافرين بالهزيمةِ والانكسار والذِّلّة والخذلان من الله عزّ وجلّ. البلاغة العربية.(٤٢٧/٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) تفسير القرطبي. (١٩/ ٤٨).

على تقدير حرفيتها، أي: إرسالا كائنا كما، والمعنى: أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه(١).

ـ والفاء في قوله تعالى:﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ للتفريع، أي: أرسلنا إليكم رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا قبل ذلك، فكانت النتيجة أن عصى فرعون أمر الرسول الذي أرسلناه إليه، واستهزأ به، وتطاول عليه فكانت عاقبة هذا التطاول، أن أخذناه أَخْذاً وَبِيلًا، وأشار؛ إيماء إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر، وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين لما عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حل بفرعون(٢).

ـ وتأكيد الفعل بالمصدر في قوله تعالى﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾ زيادة في البيان والإيضاح لهذا الأخذ، والمعنى أي: أهلكنا فرعون إهلاكاً شديداً، وعاقبناه عقاباً ثقيلاً، فوبيل بزنة فعيل صفة مشبهة، مأخوذة من وبل المكان، إذا وخم هواؤه وكان ثقيلاً رديئاً، ويقال: مرعى وبيل، إذا كان وخماً رديئاً(٣).

ـ والسر في التعبير عن إغراق فرعون بـ "الأخذ الوبيل"؛ فهو من المجاز لبيان سوء العاقبة، قال الإمام الطاهر بن عاشور: " والأخذ مستعمل في الإهلاك مجازاً؛ لأنه لما أزالهم من الحياة أشبه فعله أخذ الآخذ شيئا من موضعه وجعله عنده، والأخذ الوبيل مستعار لسيىء العاقبة شديد السوء، وأريد به الغرق الذي أصاب فرعون وقومه"(٤).

---

(١) روح المعاني.(١٥/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: التفسير الوسيط .(١٥/ ١٦٢).

(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٤).

ـ وهذا التذييل خارج عن التشبيه كما ذكر الإمام الألوسي جيء به؛ لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد وأشد[١].

ومعنى ذلك: أن التذييل جيء به لبيان عاقبة فرعون وهي الغرق، وأن أهل مكة مأخوذون بمثل ذلك وأشد، وهو خارج عن التشبيه؛ لاختلاف أنواع العذاب، والتشبيه إنما هو بين الإرسالين في الكفر والعصيان، فقد شبه الله إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة بإرسال موسى إلى فرعون على التعيين، لأن كلا منهما ربا في قومه واستحقروا بهما، وكان عندهم علم بما جرى من غرق فرعون، فناسب أن يشبه الإرسال بالإرسال.

ـ والفاء في قوله تعالى:﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ للتفريع، وصدر الله سبحانه الحديث عن يوم القيامة بلفظ الاستفهام؛ للإشعار بشدة أهواله، وأنه أمرٌ يعجز الواصفون عن وصفه.

**ـــ وقد بين الإمام الطاهر ابن عاشور الغرض من الاستفهام فقال:** الاستفهام بـ "كيف " مستعمل في التعجيز والتوبيخ، وهو متفرع بالفاء على ما تضمنه الخطاب السابق من التهديد على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أدمج فيه من التسجيل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم، فليس بعد الشهادة إلا المؤاخذة بما شهد به، وقد انتقل بهم من التهديد بالأخذ في الدنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال فرعون مع موسى إلى الوعيد بعقاب أشد وهو عذاب يوم القيامة، وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتعاظ وخوف من الوعيد بما حل بأمثالهم مما شأنه أن يثير فيهم تفكيراً من النجاة من الوقوع فيما هددوا به، وأنهم إن كانوا أهل جلادة على تحمل عذاب الدنيا فماذا يصنعون

(١) روح المعاني. (١٥/ ١٢٠).

في اتقاء عذاب الآخرة، فدلت فاء التفريع واسم الاستفهام على هذا المعنى، فالمعنى: هبكم أقدمتم على تحمل عذاب الدنيا فكيف تتقون عذاب الآخرة[1].

ـ **فإن سأل سائل وقال: كفر الكافرين حاصل من قبل نزول هذه الآية، فلم جاءت جملة الشرط دالة على الاستقبال؟** والجواب: أن فعل الشرط من قوله: ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ يقتضي الاستقبال، وذلك قرينة على إرادة معنى الدوام من هذا الفعل، وهو مستعمل في معنى الدوام على الكفر، لأن المعنى: إن بقيتم على الكفر وأصررتم عليه[2].

---

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٤).

إعراب "يوماً" مفعول به منصوب بـ "تتقون"، أى: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله، إن بقيتم على الكفر؟

ويجوز أن ينتصب على الظرف، أي: فكيف لكم بالتقوى يوم القيامة، إن كفرتم في الدنيا؟

ويجوز أن ينتصب مفعولا به ب " كفرتم" إذا جعل" كفرتم" بمعنى جحدتم، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة؟ ولا يجوز أن ينتصب ظرفا، لأنهم لا يكفرون ذلك اليوم؛ بل يؤمنون لا محالة. ويجوز أن ينتصب على إسقاط الجار، أي: إن كفرتم بيوم القيامة. ينظر الدر المصون.(١٠/ ٥٢٧).

وقال العلامة الطيبي في الوجه الأخير أعني انتصاب "يَوْماً" بكفرتم أنه أوفق للتأليف يعني: خوفناكم بالإنكال والجحيم، وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم، وأنذرناكم بما فعلنا بفرعون من العذاب الوبيل والأخذ الثقيل فما نجع فيكم ذلك كله، ولا اتقيتم الله تعالى فكيف تتقونه وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء، وفيه أن ملاك التقوى والخشية الإيمان بيوم القيامة انتهى. ينظر: حاشية الطيبي (١٠٠/١٦). ورجح الإمام الألوسي الأول فقال: "ولا يخفى أن جزالة المعنى ترجح الأول". روح المعاني للألوسي(١٢٠/١٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٤).

ـ وقد بين الله أهوال ذلك اليوم فوصفه بوصفين: الوصف الأول: أنه يحول الشعر الشديد السواد للولدان، إلى شعر شديد البياض، قال الإمام الطاهر بن عاشور: "وهو وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب، فلما أريد وصف هم ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده، وهذه مبالغة عجيبة وهي من مبتكرات القرآن فيما أحسب"[(١)]، الثاني: أنه لشدة هوله، تصير السماء مع عظمها وصلابتها شيئاً منفطراً، أى: متشققا بِهِ، أى: فيه.

ـ وفي هذه الآية الكريمة مجاز إسنادي كناية عن شدة الهول، حيث أسند المشيب إلى اليوم، وما أجمل عبارة الإمام الزمخشري في بيان ذلك حيث قال:﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان، أسرع فيه الشيب، قال أبو الطيب المتنبي:

**والهم يخترم الجسيم نحافة ... ويشيب ناصية الصبى ويهرم**[(٢)]

وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة[(٣)]، فقال: أريت القيامة

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٤).

(٢) لأبى الطيب، من بحر الكامل. انظر ديوانه. (٥٧١). يقول الحزن يذهب جسم الجسيم بالنحافة ويهرم الصبي قبل أوانه كما قال أبو نواس، وما إن شبت من كبرٍ ولكن، لقيت من الحوادث ما أشابا. ينظر: شرح ديوان المتنبي للواحدي.(١٧٢/١).

(٣) " الثغام، بالفتح: نبت يكون في الجبل، يبيض إذا يبس، ويشبه به الشيب، الواحدة ثغامة. الصحاح (١٨٨٠/٥). فصل الميم، مادة: ثغم.

والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون.

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول. وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب"[1].

وقال الإمام الطاهر ابن عاشور: "إسناد﴿ يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ إلى اليوم مجاز عقلي لأن ذلك اليوم زمن الأهوال التي تشيب لمثلها الأطفال، والأهوال سبب للشيب عرفا، والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليان وكناية ومبالغة في قوله:﴿ يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾[2].

ـ **أما عن السر في عدم تأنيث الصفة "منفطر به"**؛ وذلك لوجوه، الأول: تأويل السماء بمعنى السقف، الثاني: أنها على النسب أي: ذات انفطار نحو: مرضع وحائض، أي: ذات إرضاع وذات حيض، الثالث: أن التذكير لإجرائه على موصوف مذكر، أي: شئ منفطر، عبر عنها بذلك؛ للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها، وزال عنها اسمها ورسمها، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء[3].

ويزاد على هذه الأوجه الثلاثة ما ذكره الإمام أبو حيان حيث قال: " يعني المظلة تذكر وتؤنث، فجاء منفطر على التذكير، ومنه قول الشاعر:

**فلو رفع السماء إليه قوم ... لحقنا بالسماء وبالسحاب**[4]

---

(١) تفسير الكشاف. (٦٤١/٤، ٦٤٢).

(٢) التحرير والتنوير. (٢٧٥/٢٩).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (٥٢/٩).

(٤) البيت من بحر الوافر. ورد غير منسوب لأحد في لسان العرب. .(٣٨٩/١٤).

وعلى القول بالتأنيث، فقال أبو علي الفارسي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، وأعجاز نخل منقعر. انتهى. يعني أنها من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث وأن مفرده سماء، واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث، فجاء منفطر على التذكير" ثم ذكر الوجه الأول والثاني [١].

فقد ذكر الإمام أبو حيان: أنها تذكر وتؤنث فلا حاجة لتأويلها، أو اسم جنس يجوز فيه التذكير والتأنيث لأن تأنيثها سماءة.

ـ وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور السر في عدول النظم الكريم عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث إلى التذكير وذلك؛ إيثاراً لتخفيف الوصف، لأنه لما جيء به بصيغة "منفعل" بحرفي زيادة وهما الميم والنون، كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث، وهو هاء التأنيث، فيحصل فيها ثقل يجنبه الكلام البالغ غاية الفصاحة، ألا ترى أنها لم تجر على التذكير في قوله:﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾[٢]، إذ ليس في الفعل إلا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنها ساقطة في حالة الوصل، فجاءت بعدها تاء التأنيث[٣].

ـ أما عن مرجع الضمير في "به" فالظاهر أنه يعود إلى اليوم، وقال مجاهد: يعود على الله، أي بأمره وسلطانه، ونوع الباء؛ فهي للسببية، أي: بسبب شدة ذلك اليوم، أو ظرفية، أي: فيه[٤]، وجعلها الزمخشري للاستعانة

(١) البحر المحيط (٣١٨/١٠، ٣١٩).
(٢) سورة الإنفطار الآية رقم (١).
(٣) التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).
(٤) البحر المحيط. (٣١٨/١٠، ٣١٩).

فقال: "والباء في"به" مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعني: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم، وهو له كما ينفطر الشيء بما يفطر به"[1]، وقد رجح ذلك الإمام الألوسي فقال: "وحمل الباء في "بِهِ" على الآلة هو الأوفق، لتهويل أمر ذلك اليوم، وجوز حملها على الظرفية أي: السماء منفطر فيه[2]، وقيل: الباء بمعني اللام أي: له، أي: لذلك اليوم، يقال: فعلت كذا بحرمتك، أو لحرمتك، وقال القرطبي أنها بمعنى "في" فقال: " ومعنى: "به"، أي: "فيه"، أي: في ذلك اليوم، وهذا أحسن ما قيل فيه[3]، والجميع سواء[4]، والأحسن كون الباء بمعنى " في"؛ أن ذلك ارتقاء في وصف اليوم بحدوث الأهوال فيه، فإن انفطار السماء أشد هولاً ورعباً مما كني عنه بجملة ﴿ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبٗا﴾ أي: السماء على عظمها وسمكها تنفطر لذلك اليوم فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق فيه[5].

ـ والضمير في "وعده" يجوز أن يكون عائداً على اليوم، فهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: أنَّه تعالى وعد عباده هذا اليوم، وهو يوم القيامة، فلا بد من إنجازه.

(١) تفسير الكشاف. (٦٤٢/٤).

(٢) روح المعاني .(١٥/ ١٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. (١٩/ ٥٠)، وإعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش. (١٠/ ٢٦٨).

(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٥٢٨/١٠).

(٥) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٥).

ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل، وإن لم يجر له ذكر قريب، لأنه معلوم أن الذي هذه مواعيده هو الله تعالى، والأول أظهر[١].

ـ وقد أشار الإمام الطاهر بن عاشور إلى عدة أسرار في قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾

**أولاً: جاءت جملة التذييل بهذا العموم؛** لتشمل أحوال المتحدث عنهم وأحوال غيرهم، أي: تذكرة لمن يتذكر، فإن كان من منكري البعث آمن به، وإن كان مؤمنا استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما فاته".

**ثانياً: تأكيد الكلام بـ " إن"** ؛ لأنَّ المخاطبين به ابتداءً هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدى، فإنهم كذبوا بأنه من عند الله، ووسموه بالسحر وبالأساطير، وذلك من أقوالهم التي أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر عليها"[٢].

ـ واسم الإشارة يعود إلى الآيات المتقدمة المشتملة على الزواجر والتهديدات وأنواع العذاب، أو إلى السورة بأجمعها، أو القرآن أي: هذه الأقوال المذكورة فيه .

**ثالثاً: التعبير عن الموعظة بالتذكرة؛** لأنها تذكر الغافل عن سوء العواقب، وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض على التدبر فيه والتفكر على طريقة التعريض، والتذكرة بمعنى الموعظة وهي: اسم لمصدر الذكر بضم الذال، الذي هو خطور الشيء في البال.

(١) ينظر: البحر المحيط. (٣١٨/١٠، ٣١٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٧).

**رابعاً: الفاء في قوله تعالى** ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ للتفريع، حيث فرع هذا التحريض الصريح على التعريض التحريضي السابق، أي: من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة فلم تبق للمتغافل معذرة[١].

ويجوز أن تكون الفاء للسببية، أى: ليس السبيل الى الله تعالى إلا التذكرة، فإنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا، وليس الحجاب بيننا إلا حجاب الغفلة وحجاب العظمة والكبرياء منه تعالى[٢]. وهذا من الترغيب في الأعمال الصالحة بعد التخويف والترهيب.

**ـ فإن قال قائل: هل التعبير بقوله:﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ من قبيل التخيير بين الإيمان والكفر؛ حيث جاء الاسم الموصول من قبيل التحريض؟**

قال الإمام ابن عطية: "ليس معناه إباحة الأمر وضده، بل يتضمن معنى الوعد والوعيد"[٣]، ووافقه الإمام الطاهر بن عاشور فقال: " ليس ذلك إباحة للإيمان والكفر، ولكنه تحريض على الإيمان، وما بعده تحذير من الكفر، أي: تبعة التفريط في ذلك على المفرط، وهو تمثيل لحال طالب الفوز والهدى بحال السائر إلى ناصر أو كريم قد أري السبيل الذي يبلغه إلى مقصده فلم يبق له ما يعوقه عن سلوكه".[٤].

وكذلك الإمام أبو حيان فقال: "ومفعول شاء محذوف يدل عليه الشرط، لأن من شرطية، أي: فمن شاء أن يتخذ سبيلا اتخذه إلى ربه،

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٧، ٢٧٨).
(٢) التفسير المظهري. (١١٤/١٠).
(٣) تفسير ابن عطية. (٥/ ٣٩٠).
(٤) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٧٧، ٢٧٨).

وليست المشيئة هنا على معنى الإباحة، بل تتضمن معنى الوعد والوعيد"[١].

وجعل ابن عرفة الآية من قبيل التخيير، وأن الإنسان مخير في تعيين السبيل، فقال: "المشيئة هنا مجاز؛ لأنه يقال في الواجب أو المندوب: من شاء أن يفعل كذا فليفعل، فهذا خبرٌ، المراد به الأمر، ابن عطية: وعد ووعيد، ولو كان كذلك كان أمراً حقيقياً، مثل:﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ [٢]أو يقال: المفعول محذوف، وتقديره بأحد وجهين: من شاء النجاة اتخذ إلى ربه سبيلا، أيَّ سبيلٍ، وليس في هذا تكرار؛ لأن(سبيلًا) الثاني موصوف بصفة تقتضي تعظيمه، فتنكيره للتعظيم، أو نقول: متعلق التخيير تعيين.[٣]

والصحيح أن هذا التقدير لا حاجة إليه، وهذا ليس من قبيل التخيير بين الإيمان والكفر، وإنما المقصود به الحض والحث على سلوك طريق الخير والطاعة الموصل إلى الله تعالى، ولا يحول بين الإنسان الطالب للخير وبين سلوك هذا الطريق إلا مشيئة الله تعالى، بدليل قوله تعالى قبل ذلك:﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ ﴾: فهو قرينة على ذلك، أى: هذه الآيات تذكرة وموعظة، فمن ترك العمل بها ساءت عاقبته، ولم يكن من الذين سلكوا طريق النجاة[٤].

(١) البحر المحيط. (١٠/ ٣١٩).

(٢) سورة فصلت الآية رقم (١٠)

(٣) تفسير ابن عرفة (٤/ ٣١٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير بتصرف. (٢٩/ ٢٧٨).

**المبحث الثالث: التخفيف على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، وذلك في الآية الأخيرة من السورة الكريمة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل: ٢٠

وهذه الآية ترجع إلى أول السورة حيث كان الأمر فيها للنبي وكذلك أصحابه بأن يقوم ساعات طوالا من الليل تتراوح بين الثلث والثلثين، وقد امتثل النبي لذلك بل وبالغ فيه، وبعد عشر سنين من هذا الأمر نزل التخفيف على الأمة، وانتقل الأمر من الواجب إلى المباح، فلقد خفف الله عن الأمة الإسلامية حيث اتسع العدد وأصبح فيها المريض وذو الحاجة والمسافر والمقاتل، وهؤلاء بلا شك لا يطيقون القيام فجعله الله مندوبا، من شاء فعله فاستحق ثوابه، ومن شاء ترك هذا الفضل الكبير والله هو العالم بكل شيء[1].

(١) ينظر: التفسير الواضح. (٣/ ٧٧١).

**وهذه الآية الكريمة فيها عدة أسرار:**

ـ ما السر في افتتاح هذه الآية بقوله﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ ﴾، ولم أكد الخبر بـ "إن"، وما السر في التعبير بالفعل المضارع؟ وقد أجاب عن ذلك الإمام الطاهر بن عاشور فقال:

١ـ " وافتتاح الكلام بـ ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ ﴾ يشعر بالثناء عليه؛ لوفائه بحق القيام الذي أُمر به، وأنه كان يبسط إليه ويهتم به، ثم يقتصر على القدر المعين فيه النصف أو أنقص منه قليلا أو زائد عليه، بل أخذ بالأقصى وذلك ما يقرب من ثلثي الليل كما هو شأن أولي العزم".

٢ـ وقال كذلك: "وتأكيد الخبر ب "إن"؛ للاهتمام به، وهو كناية عن أنه أرضى ربه بذلك، وتوطئة للتخفيف الذي سيذكر في قوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ ليعلم أنه تخفيف رحمة وكرامة، ولإفراغ بعض الوقت من النهار للعمل والجهاد".

٣ـ وقال أيضاً: " وإيثار المضارع في قوله: ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده، وذلك إيذان بأنه بمحل الرضى منه"(١).

ـ قوله تعالى﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ لم عبر الله سبحانه وتعالى عن الصلاة بالقيام ؟ قلت: لأن أكثر أحوالها القيام، أو التعبير عن الكل باسم الجزء.

ـ **فإن سأل سائل: لم عبر عن الأقل بالأدنى؟** قلت: هو من باب الاستعارة؛ حيث استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل؛ لأن المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة، وكذلك يستعار الأبعد للأكثر، قال الإمام البقاعي:

(١) التحرير والتنوير.(٢٩/ ٢٨٠).

"الأدنى مشترك بين الأقرب والأدون للأنزل رتبة؛ لأن كلا منهما يلزم منه قلة المسافة"(١).

وقال الإمام الألوسي: "أي: زماناً أقل منهما، استعمل فيه الأدنى وهو اسم تفضيل من دنا إذا قرب، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز، فهو فيه مجاز مرسل؛ لأن القرب يقتضي قلة الأحياز بين الشيئين فاستعمل في لازمه أو في مطلق القلة، وجوز اعتبار التشبيه بين القرب والقلة ليكون هناك استعارة، والإرسال أقرب" (٢).

ـ والتعبير بقوله تعالى: ﴿ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ يدل على أن قيامه صلى الله عليه وسلم كان متفاوتا في طوله وقصره، على حسب ما تيسر له صلى الله عليه وسلم، وعلى حسب طول الليل وقصره (٣).

ــ وفي التعبير عن قيام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمعية في قوله تعالى:﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ ولم يقل: وطائفة من المسلمين؛ وذلك إشارة إلى أن طائفة منهم لم تقم بذلك القيام؛ لأن "من" للتبعيض، قال الإمام البقاعي:"أي: ويقوم كذلك جماعة فيها أهلية التخلق بإقبالهم عليك وإقبال بعضهم على بعض. ولما كانت العادة أن الصاحب ربما أطلق على من مع الإنسان بقوله دون قلبه عدل إلى قوله:﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ أي: بأقوالهم وأفعالهم، أي: على الإسلام، وكأنه اختار هذا دون

(١) نظم الدرر للإمام البقاعي. (٢١/ ٢٩، ٣٠).
(٢) روح المعاني للألوسي.(١٥/ ١٢٢).
(٣) التفسير الوسيط . للشيخ محمد سيد طنطاوي. (١٥/ ١٦٦).

أن يقول من المسلمين؛ لأنه يفهم أن طائفة لم تقم بهذا القيام فلم يرد أن يسميهم مسلمين، والمعية أعم"[١].

ـ **والسر في العدول عن أن يقول الله تعالى: إن الله يعلم أنكم تقومون" إلى ما جاء في النظم الكريم**؛ لأن بين قيام النبي صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتاً في الحكم والمقدار[٢].

ـ **والسر في تقديم لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾**؛ لإفادة معنى الاختصاص، أي: اختصاص الله سبحانه وتعالى وحده بعلم مقادير ساعات الليل والنهار دون غيره، قال الإمام أبو السعود:"﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ وحده لايقدر على تقديرهما أحد أصلاً، فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء ﴿يُقَدِّرُ﴾ عليه موجب للاختصاص قطعا كما يعرب عنه قوله تعالى:﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ أي: علم أن الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبدا، فتاب عليكم بالترخيص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم في تركة"[٣]

وذهب الإمام أبو حيان إلى أن الاختصاص يفهم من سياق الكلام لا من تقديم الميتدأ، واستشهد بقوله: لو قلت: زيد يحفظ القرآن أو يتفقه في كتاب سيبويه، لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص [٤].

(١) نظم الدرر للإمام البقاعي. (٢١/٣١).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير.(٢٩/ ٢٨٢).
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (٩/ ٥٣).
(٤) ينظر: البحر المحيط. (١٠/٣٢٠).

لكن الأصح الأول؛ فالضمير في "تحصوه" يعود إلى مصدر "يقدر" لا للقيام المفهوم من الكلام، أى: علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط[1] .

وهذا التقديم لا يخرج الكلام عن الاختصاص، قال الإمام الطيبي: " إفادة الاختصاص من خصوصية الاسم الجامع مع التركيب، لتجد التفاوت بين ما عليه التلاوة وبين: يقدر الله الليل، وكذلك بين قولنا: زيد يجود وحاتم يجود".[2]

ـ وقد أشار الإمام الطاهر بن عاشور أن قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ جملة معترضة، أي: قد علمها الله كلها وأنبأه بها، والمناسبة في التعقيب بها على قوله تعالى﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ الإشارة إلى أن هذه أحوال

(١) ينظر: تفسير الكشاف.(٤/ ٦٤٣).

قال الإمام الطاهر بن عاشور: والإحصاء حقيقته: معرفة عدد شيء معدود مشتق من اسم الحصى جمع حصاة لأنهم كانوا إذا عدوا شيئا كثيرا جعلوا لكل واحد حصاة وهو هنا مستعار للإطاقة. شبهت الأفعال الكثيرة من ركوع وسجود وقراءة في قيام الليل، بالأشياء المعدودة، وبهذا فسر الحسن وسفيان، ومنه قوله في الحديث «استقيموا ولن تحصوا» أي ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي فخذوا منها بقدر الطاقة. التحرير والتنوير.(٢٩/ ٢٨٣).

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ " رقم (٢٢٤٣٦)، (١١٠/٣٧)، حديث صحيح، وهذا إسناد منقطع، فيه انقطاع بين سالم بن أبي الجعد وبين ثوبان.

(٢) حاشية الطيبي (١٠٣/١٦، ١٠٤).

مختلفة في قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض، وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره الله في أول السورة، وبذلك لا يختلف المعنى في اختلاف القراءتين؛ حيث قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ [١] ونصفه وثلثه" بخفضهما عطفا على ثلثي الليل، أي: أدنى من نصفه وأدنى من ثلثه.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب ﴿ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ "ونصفه وثلثه" على أنهما منصوبان على المفعول ل تقوم، أي: تقوم ثلثي الليل، وتقوم نصف الليل، وتقوم ثلث الليل، بحيث لا ينقص عن النصف وعن الثلث[٢].

ـ **والخطاب في قوله تعالى** ﴿ ۞ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ للمسلمين الذين كانوا يقومون الليل، على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بعد قوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ وهو الأوجه، وقد يكون الخطاب على طريقة العام المراد به الخصوص، بقرينة أن النبي لا يظن تعذر الإحصاء عليه، وبقرينة قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾ إلخ[٣].

---

(١) قراءة الخفض يلزم منها خفض الهاء، وقراءة النصب يلزم منها ضم الهاء. ينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (١/ ٣٣٠).

(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨١)

(٣) ينظر: التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٣)

قال الشهاب الخفاجي: " ليس المراد هنا قبول التوبة؛ فإنه غير مناسب، بل هو استعارة للترخيص وعدم المؤاخذة، كما أنّ من قبلت توبته لا يؤاخذ فسببه الترخيص بقبول التوبة في رفع التبعة، واستعمل لفظ المشبه به في المشبه كما في قوله﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [1].

ـ والفاء للسببية كما ذكر الإمام البقاعي " أي: فتسبب عن هذا العلم أنه سبحانه رجع بالنسخ عما كان أوجب ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بالترخيص لكم في ترك القيام المقدر أول السورة، أي: رفع التبعة عنكم في ترك القيام على ذلك التقدير الذي قدره كما رفع عن التائب" أ.هـ.

وقد بين السر في تسمية التخفيف ورفع التبعة بالتوبة فقال: "وكأنه سماه توبة وإن لم يكن ثم معصية؛ إشارة إلى أنه من شأنه لثقله أن يجر إلى المعصية"[2].

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع، قال الإمام الطاهر بن عاشور: " وفرع على ذلك ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾، وفعل تاب مستعار لعدم المؤاخذة قبل حصول التقصير؛ لأن التقصير متوقع فشابه الحاصل فعبر عن عدم التكليف بما يتوقع التقصير فيه، بفعل "تاب" المفيد رفع المؤاخذة بالذنب بعد حصوله"[3].

**ـ والمراد بالقراءة في قوله تعالى:**﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الصلاة، والسر في التعبير عن الصلاة بالقراءة؛ من باب إطلاق اسم الجزء على الكل؛ لإن القراءة بعض أركان الصلاة وأعظمها، وهو مجاز مرسل، قال

(١) عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي. (٨/ ٢٦٨).
(٢) نظم الدرر للإمام البقاعي. (٣٢/٢١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٣).

الإمام الألوسي: " أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها، وقيل: الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بعينها، وفيه بعد عن مقتضى السياق"(١).

ـ وقد يكون الأمر بالقراءة على ظاهره من غير تجوّز فيه كما ذكر الشهاب الخفاجي؛ فيكون رخص لهم في ترك جميع القيام، وأمروا بقراءة شيء من القرآن ليلاً من غير مشقة عليهم؛ لينالوا ثوابه بالأحياء بالقراءة، والأمر للندب، وفيما قبله للإيجاب. (٢)

وقد جمع الإمام الطاهر بن عاشور بين الوجهين فقال: "وفي الكناية عن الصلاة بالقراءة؛ جمع بين الترغيب في القيام، والترغيب في قراءة القرآن فيه بطريق الإيجاز"(٣).

**ـ فإن قال قائل ما السر في ترتيب النظم الكريم لأصحاب الأعذار في قوله تعالى:﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ؟**

قلت: ذكر الله علة تخفيف قيام الليل، فبدأ بالمريض الذي يشق عليه قيام الليل، والمسافر الذي يسافر في الليل غالباً، ولا يطيق قيام الليل ويحتاج للنوم في النهار، وكذلك المجاهد في سبيل الله لا يتمكن من قيام الليل.

(١) روح المعاني للألوسي. (١٥/ ١٢٣).
(٢) عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي. (٨/ ٢٦٨).
(٣) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٤).

وقد أجاب الإمام البقاعي عن ذلك فقال: " ذكر عذر المريض وبدأ به؛ لكونه أعم ولا قدرة للمريض على دفعه، ثم أتبعه السفر للتجارة لأنه يليه في العموم"(١).

ثم أتبع بذكر المجاهدين في سبيل الله؛ لأن الله سبحانه سوى بين درجة المجاهدين في سبيله، والتجار المكتسبين للمال الحلال، وهذا هو سر الجمع بين السعي في الأرض لطلب الرزق والجهاد في سبيله في هذه الآية؛ للإشعار بأن السعي لطلب الرزق لا يقل فضله عن الجهاد متى كانت النية صادقة لله، وليس هناك انشغال عن ذكر الله تعالى، فكان ترتيب النظم الكريم في غاية الحسن(٢).

وقال الشهاب الخفاجي:"وفي الآية الإشارة إلى أن السفر لكسب الحلال ونحوه فيه أجر كأجر المجاهد؛ لما قرنه به مع ما فيه من المخاطرة واحتمال الهلاك المقرب له منه"(٣)

**ـ ما معنى "يضربون"، وما السر في التعبير عن السير في الأرض بالضرب؟**

حقيقة الضرب تطلق على السير للتجارة(٤)، وقد أشار الإمام البقاعي إلى سر التعبير عن السفر بالضرب في الأرض فقال:﴿ يَضۡرِبُونَ ﴾ أي:

---

(١) نظم الدرر للإمام البقاعي.(٢١/ ٣٣).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.( ١٩/ ٥٥).

(٣) عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي. (٨/ ٢٦٨).

(٤) وحقيقة الضرب: قرع جسم بجسم آخر، وسمي السير في الأرض ضربا في الأرض؛ لتضمين فعل يضربون معنى يسيرون، فإن السير ضرب للأرض بالرجلين لكنه تتوسي منه معنى الضرب وأريد المشي فلذلك عدي بحرف "في"؛ لأن الأرض ظرف للسير كما قال تعالى:﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٦).

يوقعون الضرب في الأرض، أي: يسافرون، لأن الماشي بجد واجتهاد يضرب الأرض برجله"[١].

ـ والسر في إعادة فعل "علم" في قوله تعالى﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾ ولم يقل: "وأن سيكون منكم" بالعطف؛ إيماء إلى الثناء على النبي في وفائه بقيام الليل حق الوفاء، وعلى الطائفة الذين تابعوه في ذلك، فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم" مراد به الكناية عن الرضى عنهم فيما فعلوا، والمقصود: التمهيد لقوله:﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ إلى آخر الآية[٢].

ـ والسر في إعادة قوله تعالى:﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾؛ لتأكيد الأمر به[٣]، ولتأكيد التيسير والتخفيف وتقريره، وهذا أظهر لأنه ذكره بأثر الأعذار، وليعطف عليه ما بعده من بقية الأوامر[٤]، وعطف قوله تعالى﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ على ما قبله؛ إيماء إلى أن في الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن المؤمنين، وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير، والسر في عطف ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ على ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ كما ذكر الإمام الطاهر بن عاشور: أن ذلك من باب التتميم[٥]؛ "لأن الغالب أنه لم يخل ذكر الصلاة

(١) نظم الدرر للإمام البقاعي.(٢١/ ٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٢).
(٣) ينظر: تفسير مفاتيح الغيب. (٣٠/ ٦٩٥)، والبحر المحيط .(١٠/ ٣٢١)، وتفسير الثعالبي.(٥/ ٥٠٧).
(٤) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل. (٢/ ٤٢٦).
(٥) التتميم هو: عبارة عن الإتيان في النظم والنثر، بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ =

من قرن الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه [١] «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» [٢] .

ـ وقوله تعالى ﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ هو الصدقات غير الواجبة، وسماه الله قرضاً؛ لأنه أوجب جزاءه على نفسه[٣].

وفيه تشبيه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض الله على طريق الاستعارة التبعية[٤]، وفي هذا يقول الإمام الطاهر بن عاشور:" شُبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يقرضه الله؛ لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل، فشابه حال معطي الصدقة مستجيبا رغبة الله فيه بحال من أقرض

---

=

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} فقوله: {مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} ، تتميم، وقوله: {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} ، تتميم ثان في غاية البلاغة التي بذكرها تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، ولو حذفت الجملتان نقص معناه واختل حسن البناء. ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب. (١/ ٢٧٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة رقم (١٤٠٠)، (٢/ ١٠٥).

(٢) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٧).

(٣) تفسير العز بن عبد السلام . (٣/ ٣٨٣).

(٤) الاستعارة التبعية هي: التي يكون اللفظ المستعار فيها فِعْلاً، أو اسماً مشتقاً، أو حرفاً من حروف المعاني، مثل قول الذي يشتكي من نوائب الدهر: "عَضَّنَا الدّهْرُ بِنَابِه" بمعنى أوقع بنا المصائب، حيث شَبَّه وقع المصائب بالعضّ الذي هو مصدر فعل "عَضّ" بجامع الإيلام في كلٍّ من المشبَّه والمشبَّهِ به، ثمّ استعار كلمة "العضّ" للعمل المؤلم الذي تُحْدِثُه النوائب، ثمّ اشتَقَّ من "العضّ" الذي هو مصدرٌ فِعْلَ "عَضَّ" فكان هذا الاشتقاق أمراً تابعاً للاستعارة في الاسم الجامد الذي هو المصدر. البلاغة العربية. (٢/٢٣٧، ٢٣٨).

مستقرضا في أنه حقيق بأن يرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يعطاه يوم الجزاء"[١].

ـ **والسر في أمر الله بإقراض القرض الحسن** كما قال الإمام القاسمي؛ أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ، لا يبالي بأي شيء وأي مقدار يعطي منه، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع، ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا، والمعنى: بذل المال بالخيرات على أحسن وجه كأن يكون من أطيب المال، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير، واتقاء المنّ والأذى"[٢]. **ووصف القرض بالحسن**؛ لأن ذلك يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والسالمة من المن والأذى، والحسن متفاوت[٣].

ـ وقوله تعالى:﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل لما سبق من الأمر في قوله: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ وفي الآية الكريمة ذكر للعام بعد الخاص، فالخاص هو: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإقراض القرض الحسن، والعام هو: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ليشمل جميع أنواع الخير والصلاح مما ذكر ومما لم يذكر، وهذا هو السر في تنكير لفظ "خير"

ـ وبين الإمام الطاهر بن عاشور نوع "ما" فقال: و"ما" شرطية، ومعنى تقديم الخير: فعله في الحياة، شبه فعل الخير في مدة الحياة لرجاء الانتفاع بثوابه في الحياة الآخرة، بتقديم العازم على السفر ثقله وأدواته

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٧).

(٢) محاسن التأويل للإمام القاسمي.(٩/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٨).

وبعض أهله إلى المحل الذي يروم الانتهاء إليه ليجد ما ينتفع به وقت وصوله، و﴿ مِّنْ خَيْرٍ﴾ بيان لإبهام ما الشرطية"[1].

والسر في إعادة لفظ ﴿ خَيْرًا ﴾ ؛ للتأكيد والمبالغة، قال الإمام الطاهر بن عاشور: " و﴿ خَيْرًا ﴾ اسم تفضيل، أي: خيراً مما تقدمونه إذ ليس المراد أنكم تجدونه من جنس الخير، بل المراد مضاعفة الجزاء،... وقد أفاد ضمير الفصل[2] هنا مجرد التأكيد لتحقيقه، وقد أشار كذلك إلى أن في قوله تعالى﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إيجاز حذف، وتقدير المحذوف: وافعلوا الخير، وما تقدموا لأنفسكم منه تجدوه عند الله، فاستغني عن المحذوف بذكر الجزاء على الخير، "وتجدوه" أي: تجدوا ثوابه وجزاءه[3].

**ـ ونوع الواو في قوله تعالى:﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** يجوز أن تكون الواو للعطف، فتعطف هذه الجملة على الجملة السابقة﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ إلخ فيكون لها حكم التذييل إرشادا لتدارك ما عسى أن

---

(١) التحرير والتنوير. (٢٩/ ٢٨٨).

(٢) و"هو" ضمير فصل أو تأكيد للضمير، ووهم أبو البقاء فأجاز أن يكون بدلا من الهاء. إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. لأبي البقاء العكبري، مطبعة التقدم العلمية.

ولو كان بدلا لطابق في النصب فكان يكون إياه، وجاز أن يكون هو فصلا وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنه وقع بين معرفة ونكرة، ولكن النكرة يشبه المعرفة لامتناعه من التعريف بأداة التعريف، ووجه امتناعه من التعريف بها أنه اسم تفضيل، ولا يجوز دخول أل عليه إذا كان معه «من» لفظا أو تقديرا وهنا «من» مقدرة أي خيرا مما خلفتم. ينظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش. (١٠/ ٢٧٠/ ٢٧١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٨، ٢٨٩).

يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير فإن ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبة منه، ويجوز أن تكون الواو للاستئناف، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن الترخيص في ترك بعض القيام، إرشاداً من الله لما يسد مسد قيام الليل الذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربه إذا انتبه من أجزاء الليل" [(١)].

ـ والسر في حذف االمعمول في قوله تعالى:﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾؛ للدلالة على العموم؛ ليشمل الاستغفار في جميع الأحوال، ومن جميع الذنوب، والمعنى كما ذكر الإمام البيضاوي:﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ ﴾ في مجامع أحوالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفريط[(٢)].

ـ وفي مجيء الاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فيه فائدة كبيرة، وذلك أن الإنسان بالنسبة لأوامر الله، إما أن يكون مقصراً بأن لا يفعله أصلا أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بالاستغفار لترقيع ذلك، والإنسان يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

ـ وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار كما ذكر الإما م الطاهر بن عاشور، أي: لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة، والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة، والسر في الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة؛ إيماء إلى الوعد بالإجابة[(٣)].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير .( ٢٩/ ٢٨٩).

(٢) تفسير البيضاوي.(٥/ ٢٥٨). وقال بنحوه الإمام الألوسي في روح المعاني. (١٥/ ١٢٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير.(٢٩/ ٢٩٠).

## الخاتمة:

وبعد، فهذا ما من الله به علي، ووفقني لكتابة هذا البحث، وهذا جهدي ـ وهو جهد المقل ـ الذي لا أدعي له الكمال، فالكمال لله وحده، وقد حاولت الوصول إلى الغاية المنشودة من إبراز ما تضمنته هذه السورة من نكات بلاغية، وما احتوت عليه من أسرار بيانية، وفوائد تربوية، فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من تقصير فمني ومن الشيطان، وحسبي أني اجتهدت، والخير قصدت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب، أسأل الله أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به في الدراين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومحمد، وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**أهم النتائج والتوصيات:**

١ـ النظم القرآني من أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم، لما له من نظم بديع مخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، حيث جاء بأفصح الألفاظ، وأصح المعاني، وأحسن نظم.

٢ـ أن دلالات وأسرار النظم القرآني من أهم الأسلحة للرد على المشككين فيه.

٣ـ أن أسرار النظم تكون في الكلمة بمفردها وسر التعبير بها دون غيرها، والجمل المركبة، والحروف، وفي ترتيب الآيات والمناسبة بينها.

٤ـ اعتناء كثير من المفسرين بأسرار النظم القرآني، وإبراز قيمته مثل: الإمام الزمخشري، وأبي السعود والبيضاوي، وابن عطية، والرازي، والبقاعي، والطاهر بن عاشور.

٥ـ أن سورة المزمل هي زاد للدعاة وللمسلمين في كل زمان ومكان؛ لما احتوت عليه من أوامر وإرشادات إلهية مهمة، وقد احتوت على الكثير من أسرار النظم.

٦ـ أن الشريعة الإسلامية تمتاز بالسماحة والتيسير والتخفيف على أتباعها عند التكليف بما لا يطيقون، وذلك يتجلى في الآية الأخيرة من السورة الكريمة.

**التوصيات:**

١ـ بذل الجهد في دراسة كتاب الله شرحاً وتفسيراً وتدبراً؛ لأنه يستحق أن تفنى فيه الأعمار، ويبذل فيه النفس والنفيس.

٢ـ إعداد مزيد من البحوث حول قضية النظم القرآني، وبيان أسراره في سور القرآن؛ لأنها تبين حسن نظمه وجمال تأليفه، والرد على شبهات المشككين فيه.

**فهرس المراجع والمصادر:**


ـ الإتقان في علوم القرآن: للإمام السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

ـ أحكام القرآن: للإمام ابن العربي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م

ـ أسرار ترتيب القرآن: للإمام السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للإمام الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت/ لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ مـ

ـ إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ) الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، ( دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة ١٤١٥ هـ.

ـ إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: لأبي البقاء العكبري. الناشر: مطبعة التقدم العلمية بمصر.

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للإمام البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ

ـ البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة: القراءاتُ الشاذةُ وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان

ـ البرهان في علوم القرآن: للإمام الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

ـ البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي(المتوفى: ١٤٢٥هـ) الناشر: دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤١٦هـ/١٩٩٦ م

ـ الحجة للقراء السبعة: أبو علي الفارسي (المتوفى: ٣٧٧هـ) المحقق: بدر الدين قهوجي، بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م

ـ بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) المحقق: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م.

ـ البيان في عدّ آي القرآن: للإمام الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م

ـ تاج العروس من جواهر القاموس: للإمام الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية

ـ التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لابن عاشور(ت١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر:١٩٨٤هـ

ـــ التعريفات: للإمام الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت/ لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

ـ تفسير ابن عرفة: للإمام ابن عرفة (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م

ـ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

ـ تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي): العز بن عبد السلام (المتوفى: ٦٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

ـ تفسير القرآن العظيم: للإمام ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

ـ تفسير القرآن الكريم للإمام ابن القيم (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال/ بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٠ هـ

ـــ تفسير الماتريدي( تأويلات أهل السنة): للإمام الماتريدي(ت ٣٣٣هـ)المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان/ط الأولى:١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م

ـ تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) الناشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦ م.

ـ التفسير المظهري: المظهري، محمد ثناء الله، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية – الباكستان

ـ التفسير الوسيط للزحيلي: الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى: ١٤٢٢ هـ

ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للشيخ محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى

ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للإمام السعدي(المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

ـ جامع البيان في تأويل القرآن: للإمام الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: للإمام البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ.

ـ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: للإمام القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
ـ حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي (الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي) للشهاب الخفاجي، دار النشر: دار صادر . بيروت
ـ حجة القراءات: ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)، محقق الكتاب: سعيد الأفغاني.
ـ خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي،(المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال/بيروت، دار البحار/ بيروت،الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م
ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للإمام السمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق
ـ الدر المنثور: للإمام السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت
ـ ديوان المتنبي. الناشر: دار بيروت/ لبنان. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
ـ رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة، المؤلف: لابن كمال باشا، شمس الدين (المتوفى: ٩٤٠هـ)، المؤلف: حامد قنيبي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العددان ٧١، ٧٢ السنة ١٨رجب – ذو الحجة ١٤٠٦هـ
ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للإمام الألوسي(المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للإمام الفارابي ( المتوفى: ٣٩٣هـ)، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين/ بيروت ط: الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م

ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للإمام النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

ـ فتح القدير: للإمام الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ

ـ القاموس المحيط: الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: للإمام الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن: للإمام الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م

ـ اللباب في علوم الكتاب: للإمام ابن عادل (المتوفى: ٧٧٥هـ) المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م

ـ لسان العرب: لابن منظور(المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

ـ محاسن التأويل: للإمام القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ
ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م
ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
ـ مختار الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للإمام الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية/ الدار النموذجية، بيروت/ صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م
ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: للإمام مسلم (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
ـ مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، ويُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِمُسَمَّى" للإمام البقاعي(المتوفى: ٨٨٥هـ) دار النشر: مكتبة المعارف/ الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م
ـ معالم التنزيل في تفسير القرآن: تفسير البغوي للإمام البغوي (المتوفى ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط: الأولى،١٤٢٠ هـ

ـ معاني القرآن وإعرابه للإمام الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت،الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م
ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة
ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: للإمام الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ
ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: للإمام الغرناطي(المتوفى: ٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان
ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
ـ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: للإمام مكي بن أبي طالب (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

**Index of References and Sources:**

- Al-Itqan fi Ulum al-Quran: by Imam al-Suyuti (d. 911 AH), edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, published by the Egyptian General Book Authority, edition: 1394 AH/1974 AD
- Ahkam al-Quran: by Imam Ibn al-Arabi (d. 543 AH), reviewed its principles, cited its hadiths, and commented on it: Muhammad Abd al-Qadir Atta, published by Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, third edition, 1424 AH/2003 AD
- Secrets of the Arrangement of the Qur'an: by Imam al-Suyuti (d. 911 AH), Publisher: Dar al-Fadhila for Publishing and Distribution
- Lights of Explanation in Clarifying the Qur'an with the Qur'an: by Imam al-Shanqiti (d. 1393 AH), Publisher: Dar al-Fikr for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, Lebanon, Publication Year: 1415 AH (1995 AD)
- The Syntax and Explanation of the Qur'an: Muhyi al-Din ibn Ahmad Mustafa Darwish (d. 1403 AH) Publisher: Dar al-Irshad for University Affairs - Homs - Syria (Dar al-Yamamah - Damascus - Beirut), (Dar Ibn Kathir - Damascus - Beirut), Fourth Edition, 1415 AH
- Dictation of the grammatical and reading aspects bestowed upon us by the Most Gracious in the entire Qur'an: by Abu al-Baqa' al-'Ukbari. Publisher: Al-Taqadum Scientific Press, Egypt.
- The Lights of Revelation and the Secrets of Interpretation: by Imam al-Baydawi (d. 685 AH), Edited by Muhammad Abd al-Rahman al-Mar'ashli, Publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi/Beirut, First Edition, 1418 AH

- Al-Bahr Al-Muhit fi al-Tafsir: Abu Hayyan al-Andalusi (d. 745 AH), edited by Sidqi Muhammad Jamil, published by Dar al-Fikr, Beirut, edition: 1420 AH
- Al-Budur al-Zahira fi al-Qira'at al-Tahtir li-Qira'at al-Mutawatir li-Tayyibiyah wa al-Durrah: Anomalous Qira'at and their interpretation from the Arabic language: Abd al-Fattah ibn Abd al-Ghani ibn Muhammad al-Qadi (d. 1403 AH), published by Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, Lebanon
- Al-Burhan fi Ulum al-Quran: by Imam al-Zarkashi (d. 794 AH), edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, first edition, 1376 AH - 1957 AD, published by Dar Ihya' al-Kutub al-Arabiyya, Issa al-Babi al-Halabi and his partners.
- Arabic Rhetoric: Abd al-Rahman ibn Hasan Habanka al-Maydani al-Dimashqi (d. 1425 AH), published by Dar al-Qalam, Damascus, Dar al-Shamiya, Beirut, first edition, 1416 AH/1996 AD.
- The Proof for the Seven Readers: Abu Ali Al-Farsi (d. 377 AH) Edited by: Badr Al-Din Kahwaji, Bashir Juwaijabi, Reviewed and Proofread by: Abdul Aziz Rabah - Ahmed Youssef Al-Daqqaq, Publisher: Dar Al-Mamun for Heritage - Damascus / Beirut, Edition: Second, 1413 AH - 1993 AD.
- "The Miracle of the Qur'an" by Imam al-Khattabi (d. 388 AH), edited by Muhammad Khalaf Allah and Dr. Muhammad Zaghloul Salam, published by Dar al-Ma'arif, Egypt, third edition, 1976.
- "The Statement on Counting the Verses of the Qur'an" by Imam al-Dani (d. 444 AH), edited by Ghanem Qaddouri al-Hamad, published by the Center for Manuscripts and Heritage, Kuwait, first edition, 1414 AH - 1994 AD

- Taj al-Aroos min Jawahir al-Qamoos: by Imam al-Zubaidi (d. 1205 AH), edited by a group of editors, published by Dar al-Hidayah
- Tahrir wa al-Tanwir: Editing the Correct Meaning and Enlightening the New Mind from the Interpretation of the Glorious Book, by Ibn Ashur (d. 1393 AH), published by Dar al-Tunisiya for Publishing, Tunis, year of publication: 1984 AH
- Al-Ta'rifat: By Imam al-Jurjani (d. 816 AH), edited and authenticated by a group of scholars under the supervision of the publisher. Publisher: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon. First Edition 1403 AH - 1983 AD.
- Tafsir Ibn Arafa: By Imam Ibn Arafa (d. 803 AH), edited by Jalal al-Asyuti. Publisher: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon. First Edition 2008 AD.
- Tafsir Abi al-Su'ud = Guidance of the Sound Mind to the Merits of the Noble Book: by Imam Abu al-Su'ud (d. 982 AH), Publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi - Beirut
- Tafsir al-Quran (an abbreviation of al-Mawardi's Tafsir): al-'Izz ibn 'Abd al-Salam (d. 660 AH), Edited by Dr. Abdullah ibn Ibrahim al-Wahbi, Publisher: Dar Ibn Hazm - Beirut, First Edition, 1416 AH/1996 AD
- Tafsir al-Qur'an al-Azim: by Imam Ibn Kathir (d. 774 AH), edited by Sami bin Muhammad Salamah, published by Dar Taiba for Publishing and Distribution, second edition, 1420 AH - 1999 AD
- Tafsir al-Qur'an al-Azim: by Imam Ibn al-Qayyim (d. 751 AH), edited by the Office of Arab and Islamic Studies and Research under the supervision of Sheikh Ibrahim Ramadan, published by Dar and Library al-Hilal/Beirut, first edition, 1410 AH
- Al-Maturidi's Interpretation (Interpretations of the Sunnis): by Imam Al-Maturidi (d. 333 AH), edited by

Dr. Majdi Basloum, published by Dar Al-Kotob Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, first edition: 1426 AH/2005 AD

- Al-Maraghi's Interpretation: Ahmad ibn Mustafa Al-Maraghi (d. 1371 AH), published by Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Printing House and Sons, Egypt, first edition, 1365 AH/1946 AD

— Al-Tafsir al-Mazhari: Al-Mazhari, Muhammad Thana' Allah, Edited by Ghulam Nabi al-Tunisi, Publisher: Maktabat al-Rashdiya, Pakistan

— Al-Tafsir al-Wasit by al- Zuhayli: Publisher: Dar al-Fikr, Damascus, First Edition: 1422 AH

— Al-Tafsir al-Wasit of the Holy Qur'an: by Sheikh Muhammad Sayyid Tantawi, Publisher: Dar Nahdet Misr for Printing, Publishing, and Distribution, Faggala, Cairo, First Edition

— Taysir al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Mannan, by Imam al-Sa'di (d. 1376 AH), edited by Abd al-Rahman ibn Mu'alla al-Luwaihaq, published by Dar al-Risalah, 1st edition, 1420 AH - 2000 AD.

- Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an, by Imam al-Tabari (d. 310 AH), edited by Ahmad Muhammad Shakir, published by Dar al-Risalah, 1st edition, 1420 AH - 2000 AD.

— The Compendium of the Authentic and Concise Hadiths on the Affairs, Sunnahs, and Days of the Messenger of Allah (peace and blessings be upon him): by Imam al-Bukhari, edited by Muhammad Zuhair ibn Nasir al-Nasir, published by Dar Tawq al-Najat, first edition, 1422 AH

— The Compendium of the Rulings of the Qur'an = Tafsir al-Qurtubi: by Imam al-Qurtubi (d. 671 AH), edited by Ahmad al-Bardouni and Ibrahim Atfeesh, published by Dar al-Kutub al-Masryia - Cairo, second edition, 1384 AH - 1964 AD

- Jewels of Eloquence in Meaning, Rhetoric, and Poetics: Ahmad bin Ibrahim bin Mustafa Al-Hashemi (d. 1362 AH), Edited, Proofread, and Documented by: Dr. Youssef Al-Sumaili, Publisher: Al-Asriya Library, Beirut
- Al-Shihab's Commentary on Al-Baydawi's Commentary (entitled: The Care of the Judge and the Sufficiency of the Satisfied on Al-Baydawi's Commentary) by Al-Shihab Al-Khafaji, Publishing House: Dar Sader - Beirut
- The Argument of Readings: Ibn Zanjala (d. circa 403 AH), Edited by: Saeed Al-Afghani.
- The Treasure of Literature and the Ultimate Goal: Ibn Hujjah al-Hamawi (d. 837 AH), edited by Issam Shaqiu, published by Dar and Maktabat al-Hilal/Beirut, Dar al-Bahar/Beirut, latest edition 2004.
- The Preserved Pearl in the Sciences of the Hidden Book: by Imam al-Sameen al-Halabi (d. 756 AH), edited by Dr. Ahmad Muhammad al-Kharrat, published by Dar al-Qalam, Damascus.
- Al-Durr al-Manthur: by Imam al-Suyuti (d. 911 AH), Publisher: Dar al-Fikr – Beirut
- Diwan al-Mutanabbi. Publisher: Dar Beirut, Lebanon. 1403 AH/1983 AD.
- A Treatise on the Investigation of the Meaning of Poetry and Grammar, by Ibn Kamal Pasha, Shams al-Din (d. 940 AH), Author: Hamid Qunaibi, Publisher: Islamic University of Medina, Edition: Issues 71 and 72, Year 18 Rajab - Dhu al-Hijjah 1406 AH
- Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Qur'an al-'Azim wa al-Sab' al-Mathani: by Imam al-Alusi (d. 1270 AH), edited by Ali Abd al-Bari Attia, published by Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah - Beirut, first edition, 1415 AH
- Al-Sihah: The Crown of the Language and the Correct Arabic Verses, by Imam al-Farabi (d. 393 AH), edited

by Ahmad Abd al-Ghafur Attar, published by Dar al-'Ilm lil-Malayin - Beirut, fourth edition, 1407 AH/1987 AD

- The Wonders of the Qur'an and the Desires of the Criterion: by Imam al-Naysaburi (d. 850 AH), edited by Sheikh Zakariya Umayrat, published by Dar al-Kutub al-Ilmiyyah - Beirut, First Edition - 1416 AH
- Fath al-Qadir: by Imam al-Shawkani (d. 1250 AH), published by Dar Ibn Kathir, Dar al-Kalim al-Tayyib - Damascus, Beirut, First Edition - 1414 AH
- Al-Qamus Al-Muhit: Al-Fayruzabadi (d. 817 AH), edited by: Heritage Research Office at Al-Resalah Foundation, supervised by: Muhammad Na'im Al-Arqasusi, published by Al-Resalah Foundation for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, Lebanon, 8th edition, 1426 AH - 2005 AD
- Al-Kashaf 'an Facts of the Mysteries of Revelation: by Imam Al-Zamakhshari (d. 538 AH), published by Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 3rd edition - 1407 AH
- Al-Kashf wa al-Bayan an Tafsir al-Quran: by Imam al-Tha'labi (d. 427 AH), edited by Imam Abu Muhammad Ibn Ashur, publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon, edition: first 1422 AH - 2002 AD
- Al-Lubab fi Ulum al-Kitab: by Imam Ibn Adel (d. 775 AH), edited by Sheikh Adel Ahmed Abdel Mawgoud and Sheikh Ali Muhammad Mu'awwad, published by Dar al-Kutub al-Ilmiyyah - Beirut, Lebanon, first edition, 1419 AH - 1998 AD

Lisan al-Arab: by Ibn Manzur (d. 711 AH), published by Dar Sadir - Beirut, third edition - 1414 AH

- Mahasin al-Ta'wil: by Imam al-Qasimi (d. 1332 AH), edited by Muhammad Basil Ayyun al-Sud, published by Dar al-Kutub al-Ilmiyyah - Beirut, first edition - 1418 AH

- Al-Muhtasib fi Tabyeen Shawwad al-Qira'at wa al-Idah Anha: Abu al-Fath Uthman ibn Jinni al-Mawsili (d. 392 AH), published by the Ministry of Endowments/Supreme Council for Islamic Affairs, edition: 1420 AH - 1999 AD
- The Concise Editor in the Interpretation of the Noble Book: by Imam Ibn Atiyyah (d. 542 AH), edited by Abd al-Salam Abd al-Shafi Muhammad, published by Dar al-Kutub al-Ilmiyyah - Beirut, First Edition - 1422 AH
- Mukhtar al-Sihah: The Crown of the Language and the Correct Arabic: by Imam al-Hanafi al-Razi (d. 666 AH), edited by Yusuf al-Sheikh Muhammad, published by Al-Maktaba al-Asriya/Al-Dar al-Namuthajiyah, Beirut/Sidon, Fifth Edition, 1420 AH / 1999 AD
- The concise authentic chain of transmission of the just from the just to the Messenger of God, may God bless him and grant him peace: by Imam Muslim (d. 261 AH), verified by: Muhammad Fuad Abdul Baqi, publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi – Beirut
- The sources of insight to supervise the objectives of the Surahs, and it is called: "The Supreme Objective in Matching the Name of Each Surah to the Named One" by Imam Al-Baqa'i (d. 885 AH) Publishing House: Maktabat Al-Ma'arif/Riyadh, Edition: First 1408 AH - 1987 AD
- Landmarks of Revelation in the Interpretation of the Qur'an: Tafsir al-Baghawi by Imam al-Baghawi (d. 510 AH), edited by: Abd al-Razzaq al-Mahdi, publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi/Beirut, 1st ed., 1420 AH

The Meanings and Syntax of the Qur'an by Imam al-Zajjaj (d. 311 AH), edited by Abd al-Jalil Abduh Shalabi, published by Alam al-Kutub - Beirut, first edition 1408 AH - 1988 AD

- Al-Mu'jam al-Waseet: The Arabic Language Academy in Cairo (Ibrahim Mustafa / Ahmad al-Zayat / Hamid Abd al-Qadir / Muhammad al-Najjar) Publisher: Dar al-Da'wa
- Keys to the Unseen = The Great Commentary: by Imam al-Razi (d. 606 AH). Publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi - Beirut, Third Edition - 1420 AH
- Angel of Decisive Interpretation of the Atheists and Deniers in Explaining the Ambiguous Wordings of the Verses of the Revelation: by Imam al-Garnati (d. 708 AH). Annotated by: Abd al-Ghani Muhammad Ali al-Fasi. Publisher: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.
- Nazm Al-Durar fi Tamsubuh Al-Ayat wa Al-Sur: by Imam Al-Baqa'i (d. 885 AH), Publisher: Dar Al-Kitab Al-Islami, Cairo
- Guidance to Reaching the End in the Science of the Meanings of the Qur'an and its Interpretation, its Rulings, and a Compendium of the Arts of its Sciences: by Imam Makki bin Abi Talib (d. 437 AH), Edited by: A Collection of University Theses at the College of Graduate Studies and Scientific Research - University of Sharjah, Supervised by Prof. Dr. Al-Shahid Al-Bouchihi, Publisher: The Qur'an and Sunnah Research Group - College of Sharia and Islamic Studies - University of Sharjah, Edition: First, 1429 AH - 2008 AD